

دار
الكتاب

رواية

وريدة كلوش

افتتاح غزوة

وريدة كلوش

اسم الكتاب/ اقتل عزيز

اسم المؤلف/ وريدة كلوش

سنة النشر/ ٢٠٢٢

مصممة الغلاف/ بسمة كرم

تنسيق/ كوكي أنور

الجهة الناشرة/ دار ثراث للنشر الإلكتروني

مدير عام الدار/ المهندسة أميرة محمود فتحي

رئيس مجلس إدارة الدار/ عبد الرحمن محمد



كانت مريم تدور في المطبخ منهمكة في تحضير صينية الغداء، أطفأت نار الموقد على القدر ثم أحضرت غرافا و غرفت مقدار صحن من اللوبيا ..إنه الطبق المفضل لديه، لوبيا برجلي البقر أتراه يتناوله هذه المرة؟ أم يعيده مثلما دأب منذ مدة؟ بينما تتساءل بينها وبين نفسها ترص على الصينية الى جانب صحن اللوبيا صحننا أقل حجما منه وضعت فيه هريسة صنعتها بنفسها من مدقوق الفلفل الأحمر الحار ، و طبق سلطة الخس مزينا بشرائح طماطم و بصل و زيتون أسود، و ملحية صغيرة الحجم واسعة الثقوب...إنه يرش الملح على الطعام قبل ان يتذوقه ...أو هكذا كان يفعل ، ثم وضعت ملعقة و طبقا صغيرا فيه شرائح خبز فرنسي مقطعة تساقطت عليها منشفة برتقالية اللون...يقال إن هذا اللون يفتح شهية من لا شهية له .

حملت صينيتهما باتجاه غرفة مقابلة للمطبخ كان بها
 موصدا، توقفت ، أغلقت عينيها و أخذت نفسا عميقا
 كأنما تستعدّ لأمر جلل، ثم فتحت عينيها و طرقت الباب
 طرقات خفيفة قبل أن تلج إلى الغرفة، كانت مظلمة لا
 يكاد ير منها سوى دخان سجائر يتطاير في الهواء و رائحة
 أنفاس تعفنت من شدة ما حبست بين جدران الغرفة
 الأربع، و عتمة مخيفة... ارتطمت مريم بالسريـر و هي
 تحاول الوصول إليه فحطت فوقه الصينية و سارعت نحو
 النافذة لتحسسها حتى وصلت إليها ففتحتها ، و أنحت
 الستار جانبا فانسلت أشعة الشمس داخل الغرفة و
 اقتحمت جسد شقيقها عزيز...التفتت إليه فاندشت إذ
 رآته مثلما تركته قبل سويـعات ، قابعا على الأرض معانقا
 رجليه بكلتي يديه حانيا رأسه بينهما ، ألقت نظرة على
 صينية القهوة التي تحاذيه و إذا بها هي هي مثلما وضعتها

في الصباح، كل شيء يوحي أن عزيز لم يقربها، لا زال
 الفنجان نظيفا و كذلك الكاظمة و حبات المقروط
 الخمسة لم يأكل و لم يشرب سوى الماء فقد شارفت
 قارورته على الانتهاء، أما المطفئة فكانت مثخنة ببقايا
 سجائر بعضها يتناثر دخانه في سماء الغرفة الحزينة .

جلست مريم على السرير و هي تنظر إلى عزيز
 مشفقة على حاله ، من يصدق أن هذا هو عزيز الفنان
 التشكيلي الذي بلغت سمعته الآفاق ، صاحب
 الضحكات العالية و مجالس النكات و النوادر ، عزيز
 المقبل على الدنيا ، المستصغر لكل همومها المحقر
 لآلامها...الرجل الذي كان يشيع في كل بيت يدخله
 بهجة و سعادة قل مثلها ها هو اليوم أضحى جثة بلا
 روح، انطفأت تلك السعادة و اختفت الضحكة و أدبر

عن الحياة منذ وفاة ابنته الوحيدة باية كأنما باية كانت هي
الروح التي تبث فيه الحياة و ما إن رحلت هي حتى مات.

ولدت باية قبل ثماني سنوات ، و اختار لها هذا
الاسم رغم رفض زوجته ، فقد اسمها تيمنا بالفنانة
التشكيلية الكبيرة باية و كان كل أمله أن تقتفي أثرها
حين تكبر فتصير رسامة عظيمة تجوب العالم بلوحاتها مثلما
كانت باية ، لم يكن يعلم أن حياة ابنته اقصر بكثير من أن
تحقق له تلك الأمنية، قبل ثلاثة أشهر خرج مع باية إلى
البحر في رحلة هي الأولى منذ توفيت زوجته، تأبط أدوات
الرسم من أوراق بيضاء و أقلام رصاص و أقلام ملونة و
أمسك بيد باية و نزلا إلى شاطئ " حجرة النص " حيث
الجل يعانق أمواج البحر المتلاطمة ، نبّه باية أن تلعب
بجانبه و ألا تنزل إلى الشاطئ فأنصتت ، و شرع هو في

رسم لوحته الجديدة ، كان مشغولا برسم تفاصيل وجه زوجته التي فارقتها حديثا حين نادته ابنته، كررت الطفلة النداء و مع إصرارها رفع رأسه بمشقة و إذا بباية على حافة الجبل تُريه ما صنعت من ملابس لدميتها ، كانت تتأخر خطوة و هي تحدثه فرحة ، صرخ مفزعا و هو يحاول أن يأمرها بالتقدم لكن هيهات ...فقد سقطت باية من أعلى الجبل...في تلك اللحظة سكن كل شيء، لم يعد يسمع عزيز زقزقة العصافير و خرير المياه و حفيف أوراق الشجر..ما عاد يسمع سوى صوت ابنته تناديه: بابا..بابا، أسرع نحوها و طوقه الناس من كل جانب و هو يمد يده للهواء الذي طارت فيه حتى وصلت إلى الأرض، أطل عليها و إذا بها جثمانا مرميا التف حوله الفضوليون ليروا لمعارفهم مأساة حدثت بين ظهرانهم بأسلوب تشويقي بطولي ، كانت لحظة سقوط باية هي ذاتها لحظة وفاة عزيز،

فقد بقي أسبوعاً بلا طعام و لا شراب حتى اقتادوه إلى
 المشفى لينفثوا في دمه إكسير الحياة، ثم جاءوه بإمام وعظه
 في الابتلاء و الصبر و تمكّن من إقناعه بالعودة إلى طعام
 يرمّ ما بقي له من عظم ، و رغم إقباله على الأكل لأيام
 غير أنه ما فتئ يعود لسابق عهده ، صحيح انه لم ينقطع
 عنه لكنه صار مقلّاً فيه.

المصيبة أن عزيز لم يفعل كل ما فعل حزنا على ابنته
 بل أملا في عودتها، إذ كان يردد دائما إن باية لم تمت بل
 اختطفها أحدهم و سيعيدها إليه تارة أخرى !!!

كانت مريم و هي تسمعه تمّني نفسها أن شقيقها
 سيستكين للواقع قريبا و سيرضى بما كتبه الله له لكن المدة
 طالت و اقتناع عزيز بأن باية على قيد الحياة ما نقص بل
 ازداد ، حتى أنه صار يقدم الحجج و البراهين التي تؤكد

صحة ما يقول من وجهة نظره، ما الذي تغير حتى يتقبل
اليوم وفاة باية ؟ لا شيء... هكذا تسأل مريم نفسها و
تجيب و هي تنظر إلى عزيز خائبة الرجاء من أن يعود كما
كان في السابق.

أخيرا تشجعت مريم و نطقت: عزيز قم لتناول
الغداء، جهزت لك طبق اللوبيا الذي تحبه ، أنظر صنعت
لك الهريسة ، أنا آسفة إذ لم أتمكن من عجن خبز
الدار.. أعلم أنك تعشقه لكن
_ خذي أكلك و ارحلي .

قالها بجفاء ثم عاد و نكس رأسه من جديد، رباه !
إذا كان لا يطيق سيرة الأكل فكيف لها أن تفتحه في
موضوع باية ؟ غيّرت الحديث في محاولة منها للجلوس معه
و معرفة دواخله فجعلت تصف له جمال الجو و هدوءه و

تغريه بالخروج للتنزه و بالفوائد الصحية للتعرّض للشمس،
 أخبرته أيضا عن أزهار "الخديوجة" التي تفتحت، كان
 يعشقها بجنون حتى أنه ملأ جميع شرفات منزله بمختلف
 أنواعها الحمراء و البيضاء و الوردية و البنفسجية، سكت
 و لم ينطق فإزداد قلقها عليه ، لم يتبق لها سوى أن تحدثه
 حديثا مباشرا :

_ عزيز..أعلم أن المصائب عظيم لكنها سنة
 الحياة...لا أحد منا سيخلد و باية ليست أول من مات و
 لا آخر من يموت.

رفع عزيز رأسه من جديد و أخذ يحدق في مريم
 بنظرات مرعبة و عينين محمرتين تتطايران غضبا فتلعثم
 لسانها و مع ذلك تشجعت و استرسلت قائلة:

_ليت الحزن يعيد أمواتنا إلى الحياة لأقام الناس إذن
السرادق ليل نهار و لجاءوا بالنائحات يلطمن الحدود و
يشقن الجيوب إلى أن يظهر الفقيد بينهم .

ما إن سمع عزيز كلماتها حتى وثب عليها كالأسد
و أخذ يزجر

_ باية لم تمت...باية لا تزال حية...أنا لا ابكي
فقيدة رحلت لكني ابكي قطعة كبدي لا أعلم إن جاعت
أم شبع ، عطشت أم رويت؟ نامت أم قضت ليلتها
خائفة تترقب تسلل أحد الذئاب التي اختطفها ..أفلا
تعقلين؟

_ أخي ، إن إنكارك لوفاتها أمر طبيعي لكن أمده

قد طال

ـ طال و سيطول لأن باية حية ترزق، لقد رأيت
 أنفاسها بأم عيني في المشفى ثم أتى ذلك الطبيب اللعين و
 كتب في تقريره أنها توفيت في الطريق؟ إنها مؤامرة دبرها
 أحدهم و لا بد لي أن أصل إليه و حينها ستدركين جيدا
 أن شقيقك ليس برجل مخبول .

نظرت مريم إليه نظرة امتزجت فيها الشفقة
 بالخذلان فأحس عزيز بما يخالجه من شعور ، حينئذ فتح
 الباب ثم عاد يقبع على الأرض مجددا، التوى هذه المرة و
 أدخل رأسه بين ركبتيه ، كانت تلك رسالة من عزيز أن
 أغربي عني، فهمته مريم فاتجهت نحو الباب و إذا بصوته
 يحدثها :

ـ خذي الصينية أيضا، لن آكل حتى تعود ابنتي.

اغرورقت عينا مريم بالدموع و هي تعود إلى المطبخ
 حاملة صينية الغداء ، وضعتها على الطاولة و ألقت
 بجسدها على الكرسي و هي تبكي خائفة، تذكرت ما
 حدث لوالدها بعد وفاة شقيقتها الصغرى، كان ينطق
 بنفس كلمات عزيز : ابني لم تمت بل اختطفها احدهم و
 سأصل إلى خاطفها، تهاونت العائلة في شأنه و لم تستفق
 إلا على تدهور حالته، صار يمشي محدثا نفسه، يتخيل
 أشخاصا لا وجود لهم، ينسج معهم قصصا و حكايات ،
 أهمل نفسه و عائلته و صار يدور في الشوارع باحثا عن
 ميتة لن تعود و يوم اقتادوه عنوة إلى الطبيب أبلغهم أن
 حالته متقدمة و أن دخوله مستشفى الأمراض العقلية لا
 مناص منه

تذكر مريم جيدا يوم زارته رفقة عمتها ، كان سيء
الحال، لم يعرفهما، همّ بضربهما لولا أن أنقذهما الممرض ،
كم كانت تقاسيم وجهه مخيفة ، التجاعيد ملأت وجهه
الملح، و الجحوظ حلّ محل العينين الجذابتين، تذكر أيضا
في طريق عودتهما أن عمتها ما توقفت عن البكاء حتى
النحيب و حين سألتها عن سبب بكائها تحججت
بالمريض، لم يمض أسبوع عن تلك الحادثة حتى قيل لها إن
والدك قد مات و شيعوها إلى قبره لزيارته و الترحم عليه،
ترى هل يعيش عزيز اليوم نفس ما عاشه والدها بالأمس؟
هل هو مصاب بمرض عقلي؟ هل سيلقى نفس مصير
أبيها؟ مجرد التفكير في ذلك يفجع قلبها فكيف لو تحقق،
كلا لن أسمح بذلك؟ سأخبر توفيق بكل شيء، ربما
سيساعدني في علاج عزيز...بينما هي غارقة في تفكيرها
إذ تحسست يدا تربت على كتفها، التفتت فإذا بتوفيق

يقف بجانبها متبسما، حدثت فيه هنيهة ثم قالت: كيف

دخلت إلى هنا؟

لم يجد توفيق جوابا لسؤال زوجته، أمسك غضبه و

توجه نحو نافذة المطبخ يطل منها كأنما يسعى للفرار لكن

مريم صممت على معرفة الجواب، توفيق لا يملك مفاتيح

دار عزيز فكيف استطاع الدخول؟ أتراها نسيت المفتاح

معلقا على الباب؟

حاول توفيق تغيير موضوع الحديث بأن عاتبها على

إعادة عزيز إلى حياتهما، كانت تنظر إليه وهي تحدث

نفسها عن علاقة توفيق بعزيز، كره لا تجد له مبررا يكتفه

زوجها لشقيقتها، لماذا يحقد عليه؟ هل بدافع الغيرة؟ لعل

اهتمامها الزائد بعزيز مذ وفاة ابنته حرك تلك المشاعر في

قلب توفيق و قد رأى زوجته وضعت على الرف فيما

مضت تكثر بأخيها الوحيد، لكن ما عساها
تفعل؟ أفتخلي عن عزيز في هذه اللحظات الحرجة التي
يحياها على أمل مخادع بأن يعود من قدر له الانقطاع عن
الحياة الدنيا؟ لو تركته ستزداد حالته سوءا و لا بد أن
يصاب بمرض عقلي مثل والدهما، كلا لن تسمح بذلك ما
دام في جسدها نفس . فجأة ثارت على زوجها بلا
مقدمات :

_ تريدني أن أنكر واقعا لأنك لا ترضاه؟ حتى وإن
رحل عزيز من هنا؟ حتى وإن خيرتني بينك وبين عزيز و
اخترتك أنت...حتى وإن قطعت الدفتر العائلي الذي
يربطني به سيبقى دما واحدا يسري في عروقنا أنا و عزيز
شئت أم أبيت .

جلس توفيق منهارا مما يسمع... لا أمل يرجى من
 مريم ، عزيز لم يعد قدرا محتوما عليه بل جدارا بينه و بين
 زوجته ، فهمت مريم شعوره فحاولت استعطافه قليلا،
 أخذت تحدثه عما يفكر فيه عزيز، عن تصوره أن باية لم
 تمّت و أن مؤامرة حيكّت ضده ،أخبرته أن شقيقها يتخيل
 أن العزاء و الجنازة و البكاء و النحيب مجرد مسرحية
 حقيرة ممن اختطف باية ليعذبه أو ربما ليطلب منه فدية لا
 تعلم بالضبط ما الذي يدور في رأسه .

نظر توفيق إلى مريم متشككا ثم قال:

_ هو من أخبرك بذلك؟

_ أجل ، أخبرني للتو... لم يعد يطيق سماع موت باية

حتى أنه طردني من الغرفة .

_ في أي غرفة هو ؟

_ في غرفته.

قام توفيق من مجلسه بخطى متثاقلة ثم اتجه نحو باب الغرفة فصاحت مريم: من فضلك لا تحدّثه عن شيء، التفت نحوها توفيق و نظر إليها في استغراب فاستمرت في الحديث مبرّرة: لا أريدكما أن تتناوشا كالعادة .

واصل توفيق سيره ، فتح باب الغرفة و مريم ترقبه من بعيد، رأت الغرفة تغرق في العتمة ، واضح أن عزيز أغلق النافذة من جديد، لمحت سحائب دخان السيجارة يتطاير و رائحة عفن نفاثة زكمت انفها ، سرعان ما أغلق توفيق الباب ، أسرع نحو الجزامة، اخرج منها حذاءه ثم خرج مدلفا باب الشقة تاركا مريم في حيرة من أمرها.

عزيز..عزيز...منذ عشرين عاما ظهر هذا الشبح في حياته فاستحال نعيمها جحيما، تعرّف إليه أول مرة بعد

ولادة ابنه البكر تاج الدين، مرّت حينها مريم بفترة
 اكتئاب ما بعد الولادة كان توفيق في مهمة عمل في
 الصحراء فلما عاد وجد عزيز متربعا على قلب زوجته ، لم
 يكن شقيقا لها فحسب بل كان تارة شقيقا و تارة أخرى
 أبا... بمشقة كبيرة تمكّن من إبعاده عنها ، عشرون عاما لم
 يدق هذا اللعين بابه و ها هو يقتحم حياته من جديد منذ
 حدثت الوفاة المشؤمة، يقتحمها و يعكر صفوها، ما
 السبيل لإقناع مريم أن عزيز هذا لن يفيدھا في شيء و
 أن علیھا أن تعيش من دونه، ثم إلى متى سيصبر على
 بقاءه في حياته؟ لا بد أن يجد حلا يخلصه من عزيز.

يجوب توفيق الطريق شارد الذهن لا يفكر إلا في
 وجود عزيز في حياته ، يرتطم كتفه بكتف شاب فينهال
 عليه بوابل من الشتيمة لكن توفيق لا يصغي و يمضي في

طريقه فلا يتناهى إلى مسمعه إلا صوت مريم المدافعة عن عزيز، وصل إلى الجوسق و أخذ الصحيفة التي ألف شراءها ، وضع ما أخرجه من جيبه من الدراهم بين يدي البائع و انصرف قبل أن يعيد إليه المال المتبقي، لم يقتني الصحيفة لقراءتها كما اعتاد دائما بل لينشغل بشيء ما، ليعتد هو أيضا عن ذلك الشبح الذي يؤرق مضجعه منذ شهور خلت ، كم كان مغفلا إذ ظن أن عزيز مات و لن يعود و إذا به يقف شامخا ليختطف منه زوجته و ينغص دنياه ، يمشي فلا يأبه بوجود أحد إلا مريم من جانب و عزيز من جانب آخر، هل قدر لي ألا أعيش مع مريم إلا و عزيز بحذائها؟ ألم تنتهي حكايته منذ سنوات مضت؟ أذهب كل تعبي سدى ؟ يتساءل توفيق و هو ينظر إلى ما حوله فإذا بشفاه عجوز تتحرك و تلوح إليه بيدها متوعدة ليستفيق على حبات برتقال تناثرت على أرضية الرصيف

بجانب قفة فتحت فيّها الفارغ، لا بد و أنه هو الفاعل ،
 جثم على ركبتيه يلتقط حبات البرتقال و يضعها تباعا في
 القفة و لما فرغ من عمله وقف ينظر إلى العجوز متصنعا
 ابتسامة اعتذار على محياه قبل أن يمدّها القفة فبادلته
 نظرة استغراب توحى أنّها شعرت أن الرجل في دينا غير
 دنيها فصمتت ثم مضت إلى حال سبيلها، أما توفيق
 فجعل يجيل ببصره مندهشا... ما الذي جاء به في هذا
 الشارع؟ إنه بعيد عن بيته و عن مكان عمله ... لم يعتد
 المرور من هنا ، لمح عمارات بنيت حديثا تراصت في
 أسفلها حوانيت راقية، واصل سيره حتى وقعت عيناه على
 لافتة دُوّن فيها اسم مألوف لديه: طارق بن يحيى.... أين
 سمع هذا الاسم من قبل؟ ثم أكمل القراءة : متخصص
 في الأمراض النفسية و العصبية ..توقف هنيهة محاولا
 تذكر هذا الاسم فلم يفلح ، تراجع خطوات إلى الخلف و

أطل داخل العمارة و إذا بسهم رسم في الحائط يشير إلى
سبيل الوصول لذلك الطبيب... طارق بن
يحي... أجل... طارق... إنه هو، زميل دراسته كان يحمل
هذا الاسم.. افترقا في المرحلة الثانوية عندما رحل طارق
مع عائلته إلى مدينة أخرى ، ثم سمع ذات مرة انه تخصص
في الطب و هاجر إلى كندا.. لئن تشابحت الأسماء
يستحيل أن تتشابه المهنة أيضا... إنه طارق زميله القديم
ترى كيف أصبح الآن؟ هل تغيرت ملامحه؟ هل سيتعرفان
لبعضهما؟ هل... لكن مهلا... ما الذي جعله يعثر على
عيادة زميله في هذا اليوم تحديدا؟ لماذا أخطأ الشارع؟ لماذا
اسقط برتقال المرأة العجوز هنا و ليس في مكان آخر؟ في
حياتنا لا شيء صدفة، كل الذي نعيشه رسائل متتالية و
علينا أن نحسن قراءتها و أن نستمتع و نحن نقرأها كمن
يفك لغزا غامضا يحيرّه ، أنا لم أخطئ الشارع بل سلكت

الطريق الصحيح الذي أوصلي إلى من يمد لي يد
 العون... كان مبتغاي مذ خرجت من المنزل هو أن اعثر
 على لوحة خشبية أتمسك بها لأنقذ نفسي و مريم من
 الغرق في بحر عزيز، "ها هي اللوحة قد ظهرت لي لتعيني
 على التخلص منه و بشكل يستحيل أن يجعل مريم تشك
 و لو لحظة في نواياي"... هي قالت بالحرف الواحد إن
 عزيز مريض و ها هو قد عثر على طبيب يعالجه ..لن
 يراودها أدنى شعور أنها إذ تعالج شقيقها ستقتله، أخيرا
 ابتسم توفيق في ارتياح و هو يتخيل نفسه في عزاء عزيز
 لكن سرعان ما انمحت ابتسامته حين تذكر طارق... ما
 الذي يضمّن انه سيوافقه و يشاركة فعلته ؟
 المال... سيغدق عليه بما شاء من دراهم المهم هو أن يعينه
 على قتل عزيز ، رن هاتفه للحظة ، أخرجته من جيبيه و
 إذا بها رسالة نصية، فتحها ، إنها من مريم تبلغه أنها في

انتظاره في بيتهما ، تنفس في حسرة ، تملل بين الصعود
إلى طارق أو النزول إلى مريم ثم اختار النزول... في هذه
الدنيا لا بد لنا أن ننزل دركة لنرتفع بعدها درجات .

خيم الصمت على شقة عزيز بعد أن أرخى الليل
سدوله، لم يعد يُسمع إلا حبات المطر ترتطم بزجاج
النافذة فلا تجد لها مدخلا فتساب عليها خائبة ، كان
الرجل يرقد في نفس زاوية الغرفة مذ غادرته مريم إلى بيتها
منتصف النهار إذ انطلقت موسيقى هادئة من مكان بعيد
شنت آذانه، فتح عينيه ، قطب حاجبيه و هو يحاول
معرفة مصدر ذلك الصوت الجميل الذي يعرفه و يألفه،
اعتدل في مجلسه ثم تذكر ...أجل إنه لحن ينبعث من
صندوق دمية باية كلما فتحته ، كم كانت باية تعشق تلك
الطقوقة الجميلة، لكن من فتح الصندوق و قد تركته

باية مغلقا قبل أن تختفي ، نهض عزيز من مكانه مسرعا ،
 خرج من الغرفة نحو رواق يغرق في الظلام إلا نورا آخره
 استرسل من غرفة باية .. سارع الخطى نحوها و خفقات
 قلبه تزداد كلما ارتفعت الموسيقى إلى أن وقف عند بابها
 فاعراها... باية تجلس على سريرها تداعب دميته و قد
 أخرجتها للتو من الصندوق ... صرخ راكضا إليها:
 باية... نظرت إليه بوجه عبوس ثم جرت نحو شباك النافذة
 تريد أن ترمي نفسها منها.. جعل يصرخ باسمها باكيًا
 متوسلا و لم ينتبه إلا و هو يقوم من تلك الزاوية المشؤومة
 يحيل ببصره في غرفته فلا ير إلا الظلام، إنه الجاثوم الذي
 يصمم على الظهور كلما سقط في قهقمة ، أشعل سيجارة
 بيديه المرتعشتين و جعل يرقب زخات المطر المنسابة على
 زجاج النافذة .. كم تشبه دموعه الساقطة بين وجنتيه ،
 إنها تتقاسم خيبة واحدة، و لئن كانت خيبة حبات المطر

تظهر الأرض و تنبت الزرع فإن خيبة عزيز لا تزيده إلا
كمدا و حزنا ... فالأيام تمر و لم يتصل به أحد ممن
اختطف باية.. أتراه يتوهم الأمر؟؟ هل باية ماتت مثلما
تقول مريم و جميع الناس؟ هل عليه أن يسلم بهذه الحكاية
و يترحم على ابنته و يمضي في حياته راضيا بقضاء الله و
قدره؟ كلا... إنها حية ترزق، لا بد و أنها في مكان
ما... اختطفها أحدهم ليطلب منه فدية و لو اتصل و
طلب كنوزا تنوء بها العصبة أولو القوة لأعطاه إياها حتى
و إن كلفه ذلك نفسه... تناهى إلى سمعه رنين الجرس فقام
ثقل الخطو نحو باب الشقة، فتحه و إذا بتاج الدين ابن
مريم واقفا ، جثا عليه، سلم على وجنتيه بمرحه المعتاد و
قد حمل على ظهره حقيته و دخل و عزيز ينظر إليه
مغضبا .

- مرحبا خالي، أنا مرهق جدا أريد أن

أنام...آ...أين أضع أغراضي ؟

لم يكمل كلماته تلك إلا و قد انصرف نحو غرفة

باية ، تبعه عزيز و قبل أن يلج تاج الدين الباب صرخ في

وجهه: دع عنك هذا المكان فإن له صاحبة .

رمق تاج الدين خاله باستغراب شديد فلوح عزيز

بيده نحو غرفته :

- يمكنك المبيت هنا، أما أنا فسأنام في المرسم

لا يملك عزيز في شقته سوى الغرف الثلاث:

غرفته و غرفة باية و الصالون الذي حوله إلى ورشة رسم

و بسببه اندلعت مناوشات كثيرة بينه و بين زوجته

الراحلة، توجه تاج الدين صوب الغرفة و قد بدت على

ملاحمه الدهشة من تصرفات خاله الذي لا يزال يرمقه

بنظرات أخافته ، ما إن دخل الغرفة حتى زكمت أنفه
رائحة العفن من شدة الإغلاق فسارع إلى النافذة
ليفتحها فدخل هواء نقي صاف مُزج بعبق تراب حديث
العهد بالنوى سرى في المكان فطهره تطهيرا ، استدار
خلفه و إذا بعزيز يقف و نظراته المخيفة ذاتها يصوبها نحو
ابن أخته ، بلع تاج الدين ريقه ثم تشجع و قال:

- إن كان وجودي يزعجك فأني على استعداد
للرحيل يا خال.

- لا يزعجني بل يزعج والدك، أنت تعلم أنه
لا يرغب في بقائي بينكم، و مجيئك عندي سيجرّ علي
بوابل من المشاكل بيني و بينه.

- أبدا يا خال، والدي يحبك و لا يحدثنا عنك
إلا بكل خير، أنسيت كيف تصرف في الجنازة و العزاء
كأنما ابنته هي التي توفيت ؟

انتفخت أوداج عزيز و قد كتم غيظه ثم نطق: ماذا
فعل؟

- كل شيء، كان أول من حضر إلى المشفى، و
هو من استخرج تقرير الطب الشرعي ثم شهادة الوفاة و
هو من استقبل المعزين و شيع المرحومة إلى مثواها و دخل
معهما القبر

- و أشاح الكفن عن وجهها.

- أجل

- و هذا الذي يخيفني

- ماذا تقصد؟

رن هاتف عزيز فجعل يحرق به دون أن يتحرك

فلما رآه تاج الدين أمسك به و ناوله إياه

- أحدهم يتصل بك خال.

ألقى عزيز نظرة على الهاتف ، كان رقم الاتصال

مخفيا ، فتحه و أدناه إلى أذنه بيد ترتعش و لسان يتلعثم

و بصوت متحشرج قال:

- ألو .

- ألو...عزيز...بايعة عندي..و لو أردت أن

تعود إياك أن تبلغ الشرطة

قفز عزيز من مكانه و هو يردد: أين هي؟ من

أنت؟ من أنت؟ أين ابنتي رد علي ثم تفتن إلى أن المكالمة

انتهت منذ زمن ، وثب على تاج الدين يصرخ: باية
 حية... ألم أخبركم أنها حية؟ قلت ذلك لوالدتك في
 الصباح فلم تصدقني؟ قلت لها إنها اختطفت فحسبتي
 مجنونا، هاهو الخاطف يتصل بي ليحذرنى من إبلاغ
 الشرطة إن رغبت بعودة ابنتي إلى حضني .

كان تاج الدين يقف مذهولا لا يحرك ساكنا و عزيز
 يهزه هزا إذ يتحدث و قد أجهش بالبكاء فرحا ، جعل
 الشاب يتذكر وفاة باية لحظة بلحظة، رآها جثة هامدة في
 مشرحة المشفى ثم حملها على كتفيه إلى قبرها فكيف يقول
 صاحب المكالمة أنها عنده؟

لكأن عزيز قرأ ما يجول في خاطر ابن أخته فراح
 يقنعه أنها كانت مخدرة و لم تكن ميتة، و أن الطبيب

الشرعي تواطأ في تلك المؤامرة بأن كذب في تقريره زاعماً

أنها ماتت في طريقها إلى المشفى

- لكننا واريناها الثرى؟ أياكون أحدهم قد..

- نعم أكمل و لا تحف...أحدهم وضع جثة

لطفلة أخرى في التابوت .

- يستحيل...أبي دخل معها القبر و أشاح عن

وجهها الكفن و هذا يعني انه رأى إذاك باية

صمت عزيز و هو يعمن النظر في تاج الدين و قد

علا الشك محياه ، إن أكثر ما يجعله متيقنا من أن باية

ليست هي التي دفنت أن توفيق هو الذي شيعها حتى

آخر لحظة، توفيق يقف وراء ما يحدث أو لعله يكون

شريكا فيه ، و من يدري ربما جاء تاج الدين اليوم بإيعاز

من والده لينقل له ردة فعل خاله و هو يتلقى تلك

المكاملة !!! ربما هذا هو السبب الذي جعله يصرّ على
الرد على الهاتف، تنحى عزيز عن تاج الدين جانبا و لاذ
بالصمت قبل أن يخرج علبة السجائر من جيبه، و لما همّ
بإشغالها تحدث تاج الدين بحديث أكّد النتيجة التي توصّل
إليها خاله ، فقد راح يقنعه أن صاحب المكاملة يبتزّه
ابتغاء المال و أنه إن عاود الاتصال فعليه أن يجبره على
الحديث إلى باية قبل أي اتفاق بينهما.

ما كان لتاج الدين أن يوعز لخاله بهذه الفكرة لولا
أنه يعلم يقينا أن باية حية ترزق، و ما كان له أن يهتدي
إلى ذلك لولا أن والده يقف وراء كل شيء، لكن كيف لم
يرد في خاطره أن يطلب الحديث إلى ابنته ، كيف فاتته
هذه الفكرة ، بينما كان يلوم نفسه إذ لم يطلب سماع
صوت ابنته الحبيبة انتبه إلى ما يقوله تاج الدين:

- أرى أن أحدهم استغل إنكارك لوفاة ابنتك و يريد أن يوهمك أنها ما زالت حية و أن عليك أن تفديها لتعود بين أحضانك .

أخذ عزيز يحملق في تاج الدين متشككا يسأل نفسه: ما الذي يريد هذا الشاب بالضبط؟ تارة يطلب مني أن أسمع صوت ابنتي و تارة يحاول إقناعي أن الرجل يكذب و أنه يستغل ظروفه ليحقق بها المال لأن أحدا أخبره بحالي... من يكون هذا الأحد؟ عدا مريم لم يخبر شخصا آخر بما يجول في نفسه منذ الحادثة ، و معارف مريم ضيقة جدا، هي في العادة امرأة كتومة و شديدة التحفظ في علاقاتها بالناس، إنها لا تملك صديقات و لا تزور الجارات إلا في مناسبات قليلة ، هي لا تعيش سوى لأسرتها الصغيرة و شقيقها... إن الوحيد الذي يمكن لمريم

أن تبوح له بما يحدثها به عزيز هو توفيق... للمرة الألف
توفيق مدان... سواء باية حية أم ميتة توفيق يمسك خيوط
لعبة قدرة يحركها للوصول لهدف ما ...

- خالي..أخلد الآن إلى النوم فإن اتصل بك
ذاك المجهول ثانية فاطلب منه ما أخبرتك به و ادعي أنك
ترجو الاطمئنان على ابنتك فإن تلكاً في تلبية مطلبك
فاعلم انه كاذب محتمل .

فكر عزيز هنيهة .. مشى خطوات نحو الباب ثم
استدار إلى تاج الدين الذي كان لا يزال واقفا يرقبه و
الخوف قد ملأ عينيه.

- و ماذا لو أسمعنيها؟

سكن تاج الدين في مكانه كخشبة مسندة لا يعرف
بما سيجيب ، إن خاله مقتنع أيما اقتناع أن ابنته على قيد

الحياة بينما مضى عزيز نحو مرسمه المغلق منذ الوفاة، ما إن
فتح بابه حتى تطايرت ذرات الغبار من كل زاوية ، أشعل
الضوء و إذا بلوحات تناثر بعضها أرضا و بعضها الآخر
رصّ على الحيطان بشكل عبثي، لا تزال أدوات الرسم
مبعثرة على السرير الذي خصه للاسترخاء كلما شعر
بالتعب ، رمى بها أرضا غير مبال، و أرخى بجسده لا
يفكر سوى في الاتصال الهاتفي ، كان سيغلق عينيه حين
ترأت له لوحة فنية كُفرت بقماش ابيض، لا بد و أنها
آخر ما أبدعت أنامله ، حاول تذكرها فلم يفلح، قام
بخطى متثاقلة ، أزاح القماش ثم بصّر بها عن كل جنب
فاغرا فاه ، جبل عظيم تكسوه أشجار الصنوبر يطل على
بحر هاجت أمواجه حتى علت شاطئه ، و على ذلك
الشاطئ دمىة مرمية تتقاطر دما و رجل من أعلى الجبل
يمد يده إلى الدمىة يروم التقاطها !!!

الدمية...إنها دمية باية ..و إنه الشاطئ نفسه،
 شاطئ حجرة النص و الجبل هو هو و غابة الصنوبر أيضا
 و البحر...البحر ذلك اليوم كانت أمواجه تتلاطم ..و
 الرسم رسمهترى متى رسم هذه اللوحة؟ لا يذكر انه
 امسك ريشة و دخل مرصما منذ الحادثة المشؤمة ...أجل
 هو متيقن انه لم يرسم اللوحة بل لم يدخل المرسم و الدليل
 هو انه كان محكم الإغلاق قبل قليل ...كان كما تركه
 آخر مرةلا أحد يملك مفتاحه غيره ...من رسم
 اللوحة و أحضرها إلى هنا؟ لكن الرسم رسمه ...أيكون
 رسما مقلدا؟ لا ...إنه يعرف رسمه جيدا مثلما يعرف
 نفسه...رباه ما الذي يحدث ؟ باية ماتت و لم تمت و
 هاتف يخبره أنها عنده ثم ابن أخته يريد ألا ينكر أمر
 الوفاة و يخلط عليه الأوراق و ربما هو مندرس للتجسس
 عليه و لوحة تحاكي ما حدث يجدها في رسمه الذي لم

يلجئه منذ أشهر خلت ... ألقى ببصره من جديد على
 اللوحة: إنها تؤرخ ما حدث يوم الفاجعة ، حينما سقطت
 باية من أعلى الجبل غير أن باية استبدلت في اللوحة
 بدميتها ... لم يعد عزيز يعي ما يعيشه، أهو حلم أم واقع؟
 أفكار متناقضة تراحمت بشدة في رأسه كل فكرة تناديه
 أن اتبعني فأنا دليلك نحو الطريق الصحيح .. أغمض عينيه
 و غط رغما عنه في نوم عميق لم يستفق منه إلا مع بزوغ
 شمس ظهيرة الغد.

يومان و عزيز على نفس الحال جالسا متسمرا على مخدع مرسمه
 ينظر إلى هاتفه الخليوي الذي وضعه على مائدة بخدائه بعينين جاحظتين
 امتلأتا بماقي جفت و لم يعد لها أثر سوى تلك الحمرة التي غزت البياض

فصيرت صاحبها وحشا غامضا يكاد يثب على كل من تسول له نفسه
الدنو منه.

دخل عليه تاج الدين و قد حمل في يد صحن بيض مقلي
بالطماطم و في اليد الأخرى قطعة خبز و منشفة ثم حط كل ما في يده
على المائدة بشكل عشوائي كعادة الرجال، بغضب تلقف عزيز هاتفه
الذي تاه في وسط تلك الفوضى و وضعه على السرير ثم أشعل سيجارة
جديدة ، تردد تاج الدين كثيرا في الحديث إليه ثم شرع يتكلم عن
مغامراته اليوم في الجامعة و ينكت على زملائه أما عزيز فلم يكن ير في
الدنيا شيئا سوى الهاتف و لم يكن يصغي إلا لصوت ذلك المجهول : باية
عندي ... باية حية ترزق ، كاد تاج الدين أن ينهي الصحن كله لولا أنه
تدارك الأمر فأبقى لحاله ما يشد به عوده و خرج من المرسوم خائب
الرجاء بعد أن فشل في الظفر بابتسامة صغيرة منه ، سار في الرواق و
هم بالدخول إلى المطبخ عندما سمع رنين هاتف عزيز ، قفل عائدا بسرعة

البرق، اقتحم المرسم فوجد خاله ينظر إلى الهاتف مرتعشا و العرق
يتصبب على جبينه ،ناوله الهاتف ليتحدث لكن الخوف الغريب الذي
اعترى عزيز تلك اللحظة حال دون ذلك .

- خالي إنها مكالمة برقم مخفي .. لا بد و أنه هو
أجبه...أخبره أنك تريد التحدث إلى ابنتك قبل كل
شيء.

ببطء فتح عزيز الهاتف و قرّبه إلى أذنه أما تاج
الدين فجلس بجانبه و ألصق أذنه بهاتف خاله مسترقا
السمع، فتح عزيز الهاتف و إذا بصوت رقيق بريء يحدثه
و قد تحشجج بالبكاء :

- بابا..أنا باية...بابا أرجوك تعالى أنقذني .

قام عزيز فزعا و ازدادت رعشته و جعل يبكي و
هو يقول:

- باية...هذه أنت؟ أين أنت؟ من اختطفك؟

أخبريني و لا تخشي شيئاً

و إذا به يسمع ضحكة مأكرة لذلك الوغد المجهول:

- أظن أن هذا يكفيك لتأكد أن ابنتك معي

- إياك أن تتعرض لها بسوء

- أعدك ألا أفعل إن نفذت ما آمرك به

- أطلب ما شئت كل ما يهمني هو أن تعود ابنتي

إلى حضني

- أولاً لا تبلغ الشرطة

- لو كنت أنوي الوشاية بك لفعلت من أول

مكالمة أرجوك قل لي ما المطلوب لتطلق سراح طفلي

- خمسة ملايين دينار تحضرها إليّ بعد 72 ساعة .

- حاضر... حاضر.. سأحضرها قل لي أين

أجدك؟

- بعد ثلاثة أيام سأتصل بك عند الثامنة ليلا و

حينها ستعرف أين نلتقي لكن كما أخبرتك أنصحك ألا

تبلغ الشرطة و إلا ستفقد ابنتك إلى الأبد

- لن أفعل... والله لن أفعل...أريدك أن تسمعني

صوتها ثانية

اخترق سمعه طيننا ينذر بإنهاء المج هول

اتصاله... سحب الهاتف و قد انسابت على وجنتيه دموع

الفرح و جعل يردد:

- باية حية.... مثلما أخبرتكم... باية

حية.... اختطفها الكلاب لمساومتي.... سأبذل قصارى

جهدي كي أعيدها إلي و سأحاسب الفاعل.. اجل

سأحاسبه... لن يفلت من العقاب... لا يعقل أن تعيش
طفلة في الثامنة من العمر مأساة نفسية كهذه ثم يهنأ
لخاطفها بالعيش.

كان تاج الدين ينظر إلى خاله و قد ذله ما
سمع... قبل المكالمة كان متيقنا أن المتصل سيتحجج بأي
عذر كي ينفذ من مطلب عزيز و إذا به يسمعه صوت
باية حتى قبل أن يطلب منه أحد ذلك !!! باية حية؟؟؟
كشريط سينمائي تحركت مشاهد العزاء ثم الجنازة أمام
ناظره... يحاول أن يتذكر كل شاردة و واردة ربما سيجد
جوابا مقنعا للذي يحياه الآن: يوم وفاة باية كان في
الجامعة، اتصلت به والدته و هي تبكي و بلغت النبأ ثم
طلبت منه أن يحضر إلى البيت لأن عزاء باية سيكون
عندهم لا في بيت والدها عزيز وقتها كان في المشفى

مغشياً عليه... تكفل والده توفير بإجراءات إخراج الجثة من المشرحة... ذهب هو إلى البيت... في طريقه اتصل بأحد أفراد العائلة و اتفقا على إحضار كراسي العزاء من عند فلان... أحضرا الكراسي و انضم إليهما شباب من العائلة و الجيران... جهزوا سرادق العزاء عند باب العمارة... عاد والده من المشفى رفقة عزيز و خلفهما سيارة الإسعاف التي كانت تقل جثة باية... امتلأ المكان بالمعزين من الرجال و النساء... كثر النحيب و الصراخ و بدأ بعض الرجال يهدئون الناس و يحثونهم على ترديد لا إله إلا الله... أرسله والده إلى دار البلدية ليستخرج شهادة الوفاة ففعل.. عاد في المساء... كانت النسوة قد حضرن صحن الكسكسي، قام بتوزيعها على طاولات المعزين ثم تناول صحننا رفقة عدد من شباب الحي.. في الغد حضرت المغسلة، بعد تغسيل الجثة شيعوها إلى قبرها

...كان هو في مقدمة المشيعين رفقة والده الذي دخل معها القبر و أشاح عن وجهها الكفن ثم أهال و مجموعة من الرجال عليها التراب و عادوا إلى الدار بعد أن دعوا لها مطولا.

أبدى تاج الدين فرحه بأن ابنة خاله لا تزال حية و قد أخفى في فؤاده دهشة أوصلته حد الجنون، فالصوت هو صوت باية بالفعل لكنه تلقى عزاءها بنفسه و شارك في جنازتها، من كانت الطفلة التي قُبرت إن لم تكن باية؟ والده هو الذي أحضرها من المشرحة، أيكون قد أخطأ في الجثة؟ ثم إن عزيز كان يرافقه أيعقل أنه لم ينتبه إلى أن الفقيدة ليست ابنته؟

كان عزيز هو الآخر يحدث نفسه و لكأنه سمع ما يدور في خلد تاج الدين فراح يجيب في داخله: نعم كنت

حينها مع والدك غير أني كنت فاقدا لوعيي و لم أتفطن
للذي يحدث حولي إلا بعد انتهاء مراسيم الدفن.

- إذا حدث أي تبديل في الجثة فهذا لا يعني

سوى أمرا واحدا فقط: أن ما تم كان خطأ غير مقصود.

- لو أن جثة باية استبدلت عن طريق الخطأ ما

الذي يجعل أحدهم يتصل بي و يطلب مني خمسة ملايين

دينار ليعيدها إلي؟

- هل أبي متورط فيما يجري؟

- هذا أكيد، ما حدث لباية هو اختطاف مكتمل

الأركان... و سأكشف من يقف وراءه عاجلا أم آجلا

بعد رحلة صمت قصيرة أضمر فيها كل منهما

حديثا ما كان ليسمعه للآخر نطق عزيز أمرا تاج الدين

بأن يلتقط في الصباح الباكر صورا للشقة، لكل غرفها و
 للمطبخ و الشرفات و منظرا عاما للحي ، فقد قرر أن
 يبيع شقته لتسديد مبلغ الفدية

- ما يهمني الآن هو أن أضم ابنتي لصدري و
 و الله لو كنت أعلم أنني إذ أبيع نفسي سأحصل على
 ذلك المبلغ لما ترددت و لكني متيقن أن ثمني بخس و
 دراهمي معدودة.

قال عزيز كلماته الأخيرة و الألم يعتصره ثم عاد إلى
 سريره قلقا .. أشعل سيجارة جديدة و أسند رأسه إلى
 الحائط و قد اختلطت مشاعره بين الفرح بسماعه صوت
 باية و خوفه من العجز عن إنقاذها و في خضم صراعه
 العاطفي ذاك رمق تاج الدين يخرج من الغرفة و قد أضمر
 أمرا .

كان تاج الدين قد توجه إلى شرفة المطبخ ، أخرج
هاتفه من جيبه و قبل أن يستخدمه امتدت إليه يد
لتخطفه منه بعنف ، استدار خلفه و إذا بعزيز واقفا ينظر

إليه مهددا

- كنت سأتصل بأمي لأخبرها

- أملك بالذات لا ينبغي أن تعرف منك شيئا

- و لما؟

- لأن...لأنني كنت سأخبرها بنفسي

لم يستسغ تاج الدين جواب خاله، هو يشعر أن

شكا كبيرا يملكه تجاه والده ..لكن كيف له أن يسمح

بذلك...صحيح أن التيار بينه و بين والده لا يمر لكنه

لن يسمح لأحد أيا كان أن يتهمه بهذا الجرم الخطير ،

أدرك عزيز غضب ابن أخته تجاهه فعانقه معذرا ثم قال:

- لا تنس أن الخاطف طلب مني ألا أبلغ

الشرطة و أخشى أن يأخذ والدتك الحمية فتدفع والدك

للاتصال بصديقه الضابط ... هذا كل ما في الأمر.

تظاهر تاج الدين بتصديق خاله و استأذنه للنوم

فيما عاد عزيز إلى مرسمه يقلّب في نفسه ما حدث يوم

الفاجعة فلا يذكر سوى سقوط ابنته ثم دخوله معها سيارة

الإسعاف ثم ومضات سريعة لسرادق العزاء و الجنائز لا

يكاد يذكر منها شيئا .. أعاد النظر إلى تلك اللوحة من

جديد ثم همست إليه نفسه: و ماذا لو أن في المرسم لوحة

أخرى تحاكي يوم العزاء ؟

نهض يتبصر في أرجاء المرسوم ، ينظر في لوحاته
 المعلقة على جدران الغرفة المتهالكة ربما تبوح له بسرّ
 ما... اللوحة الأولى: رجل واثب على ركبتيه بسط يديه إلى
 السماء و فتح فمه كأنما يصرخ بكل قوته بين جدران
 غرفة ضيقة أشبه بالزنزانة ليس فيها سوى سرير
 حديدي... بياض الجدران لا يوحي بالنقاء بقدر ما
 يكشف عن برودة المكان و قسوته ...اللوحة الثانية:
 بيت كبير مبني على الطراز الكولونيالي وسط حدائق ذات
 بهجة ... غلقت جميع نوافذه و لا يبدو منها سوى ظلمة
 موحشة في داخلهااللوحة الثالثة: امرأة ضخمة الجثة
 طويلة القائمة ترتدي سوادا، غامضة الملامح مدبرة في
 طريق ينتهي إلى سواد عظيم تحمل كيسا اسود كبيرا تمشي
 بخطى متسارعة كأنما لا تريد أن يراها أحد و في السماء
 شمس حجبها غيمتان عظيمتان مال لونهما إلى السواد

مثقلتان بودق لما ينزل بعد.... اللوحة الرابعة: ردهة طويلة
تنتهي إلى طريق مجهول و رجل يرتدي بياضا ينظر بمكر
شديد و قد أخفى يده اليسرى خلف ظهره لا يرُ منها
سوى أصبعين يحملان شيئا غير واضح ...هم بالنظر إلى
اللوحة الخامسة لولا أن تعباً شديدا ألم به ، إنه الضعف
العام الذي يعتريه منذ توفيت باية بسبب قلة الطعام و
شدة التفكير و الأرق... عاد إلى سريره فقابلته من جديد
لوحة تلك المرأة الغامضة لكأنها تنطق بأن وراءها سرا ما
عليه أن يكشفه ... سار نحوها يمعن النظر... لقد رأى هذه
اللقطة أمامه من قبل ... عادت مشاهد العزاء تومض
سريعا بين ناظريه و أخيرا اذكر ما رآه... كان يسند رأسه
إلى الجدار جالسا على كرسي مهمل بجانب كراسي المعزين
عند مدخل العمارة ، يسمع آي القرآن الكريم قادمة من
بيت أخته و يرى ظلال أشباح تمرّ ، بعضها يلقي عليه

السلام و البعض الآخر يكتفي بالنظر إليه مشفقاً ثم لمح
امرأة عظيمة تحمل كيساً اسود كبيراً و تمشي بخطى سريعة
فراراً من أمر ما أو من شخص ما؟؟؟ نعم .. إنها هي التي
في اللوحة ... إنها المغسلة .

حلّق أفراد العائلة حول طاولة العشاء و قد جهزتها
مريم بشتى صنوف الطعام ، منذ حادثة الوفاة لم تتفنن مريم
و هي الطباخة الماهرة_ في صنع ألد المأكّل كما كانت
تفعل في السابق، كانت فرحة كل من في البيت عارمة :
توفيق و ولده يحيى ابن السادسة عشر و أيوب ابن
العاشرة لا توصف و هم يرون مريم كما عهدوها
دائماً،مرحة ، نشيطة، و ربة بيت ممتازة.

حضرت مريم لكل فرد الطبق الذي يحبه: شربة
 فريك لتوفيق مع حبات بوراك باللحم المطحون اكتست
 لونا ذهبيا جذابا بعد طهوها في الفرن، أما يحيى و أيوب
 فأرضتهما بصحن كباب أبدعت في تزيينه ، حيث وضعت
 حبات البطاطس المقلي على حواف الصحن بشكل
 دائري و في وسط الصحن قطع اللحم مزينة ببقدونس
 مقطع و شرائح البصل تحيط بها حبات حمص نثرتها
 بشكل عفوي ثم سكبت قليلا من المرق الأبيض على
 الصحن و زينته أخيرا بعود قرفة و لم تنس طبق سلطة
 قيصر ، و قد اختارت أن تتناول أسرها الطعام في طقمها
 الرخامي المفضل ذي اللونين الأبيض و الأسود ، و رغم
 ما بذلته من جهد في تحضير الطعام و الديكور غير أنها لم
 تحمل نفسها بل استقبلتهم في كامل أناقتها مرتدية
 قفطانها الأزرق و قد أسدلت شعرها الناعم على كتفيها

فظهرت في أبهى حلتها و ازدادت جمالا فوق جمالها الذي
لم ينضب رغم أنها قاربت الخمسين من العمر .

شرع الجميع في التهام الطعام يتبادلون الحديث و
النكات و الحكايا و مريم تنظر إليهم تظهر ابتسامة و
تخفي حزنا و قلقا عظيمين ، كان كل شيء على ما يرام،
كلهم منسجمون سعداء بالحب الذي يجمعهم و الألفة
التي حولت كآبة عاشوها منذ عام تقريبا إلى فرح يغمرهم
حتى نطقت مريم فجعلتهم صما :

__عزيز؟

وقف عزيز عند باب المطبخ ينظر بعينين محمرتين
كلهما شرر يتطاير عتابا إلى مريم و هو يراها تعيش اسعد
لحظات حياتها على أنقاض حزنه ، توقفت حركة الجميع و
شخصت أبصارهم نحو مريم ثم أخذوا يتبعونها بنظرات

مريّة و هي تقوم من كرسيها نحو عزيز تحاول أن تصطاد
 عذرا لسعادة عائلتها في طريقها إليه يشفع لها عنده ،
 راحت تدعوه بظرف إلى العشاء فاعتذر و استسمحها
 بأن ينفردا بالحديث في غرفة الصالون فأذعنت و
 انصرفت معه، كان الولدان مذعورين مما يجري أما توفيق
 فلم يملك سوى أن ينكس رأسه لا يدري ما هو فاعل.

كانت مريم قد دخلت إلى الصالون و أغلقت
 الباب خلفها و شرع عزيز يسألها كمحقق يستجوب
 متهما في قسم الشرطة :

__من أحضر المغسلة؟ لماذا أحضرها توفيق و لم

تحضرها هي؟ هل شهدت عملية التغيل؟ ماذا رأت؟

كل أجوبة مريم تشي بأن ما يفكر به عزيز

صحيحا، روت له أنها أدخلت المغسلة إلى الغرفة و

أحضرت لها كل ما طلبته و ما إن شرعت بتغسيل الجثة
حتى سقطت مريم مغشيا عليها، ثم لم تستفق إلا و الجثة
مسجاة في كفنها محمولة على الأعناق في طريقها إلى
الحد.

ألقى عزيز بجسده على الأريكة يفكر و مريم تنظر
إليه مشدوهة و قبل أن تسأله راح يخبرها:
_باية حية ترزق... انتظري قبل أن تعيدي على
مسمعي اسطوانتك المعهودة أصغي إلي جيدا: قبل يومين
اتصل بي شخص يخبرني أن باية عنده و يهددني إن أبلغت
الشرطة أن يقتلها ثم عاود الاتصال بي اليوم و تحدث إلي
باية .

شخصت مريم بصرها نحوه و هي تقول في قرارة
 نفسها : لا بد و أنه يعاني مما عاناه والدي إنه نفس
 المرض ، إنه الفصام ، فهم عزيز من نظراتها كل شيء
 فابتسم في هدوء ثم أخبرها بأن في إمكانها التأكد من تاج
 الدين ، لأنه هو الآخر سمع صوت باية .

كان توفيق عند باب الصالون يسترق السمع و قد
 تصبب جبينه عرقا فجعل يمسحه و عيناه تدوران كالذي
 يغشى عليه من الموت ، بالكاد التقط أنفاسه و توجه نحو
 المطبخ، كان أيوب منهمكا في تناول العشاء و يحيي يقلب
 بالفرشاة صحن الكباب لا يقوى على الأكل و هو يفكر
 في أصوات هامسة تنبعث من الصالون ، ما إن رأى والده
 حتى قفز نحوه كغريق يتعلق بقشة تنقذه من هلاك محتموم ،
 عانق توفيق ولديه بعطف بالغ ثم طلب من يحي أن يحرس

أمه ريثما يحضر سريعا الشيخ ياسين جارهم الراقي
الشرعي ثم مسح بيده على رأس أيوب و انصرف.

كان أيوب جالسا على سريره يرتجف من شدة
الخوف و هو يسمع الشيخ ياسين يصدح بالقرآن الكريم
فيحتل صوته كل زاوية في الشقة ، عانقه شقيقه يحي
لطمأنته، لم يكن يحي أقل خوفا منه بل إن الحيرة تملكته و
لا يكاد يعي ما يعيشه ، فجأة توقف صوت الراقي و خيم
الصمت إلا من صوت باب الغرفة المجاورة و قد فُتح ،
قام يحي مسرعا و شق باب غرفته فلم يُر منه إلا عينه
تتجسس ما يحدث في رواق البيت و تبعه أيوب بفضول
طفولي ، كان والدهما يصحب الشيخ ياسين إلى باب
الشقة و هما يتحادثان بصوت خفيض ، بذل الشقيقان
جهدا مضنيا لمعرفة الحوار الدائر بين الرجلين فلم يسمعا

إلا همسا، كان الحوار قصيرا و مقتضبا إذ أكد الشيخ
 ياسين لتوفيق أن الحالة لا تستدعي راق شرعي لكنها
 تتطلب طبيبا نفسيا ، و قبل أن يودعه ناوله توفيق رزمة
 أوراق نقدية لكنه رفض باسم حق الجيرة ثم انصرف داعيا
 بالشفاء و زوال الهم .

التفت توفيق فباغتته مريم تقف شاحبة الوجه و قد
 تشككت على عينيها هالات سوداء أحالتها شبها و قبل
 أن ينطق عاجلته بالسؤال:

__ خيرا... ماذا قال الراقى؟

أجابها مترددا

__ بم تشعرين الآن ؟

__ قلقة جدا على حال شقيقي... صارحني
بالحقيقة، أرجوك .

تردد توفيق هنيهة فلما لمح ولديه يطلان من باب
الغرفة و قد اعتراهما القلق الشديد همهم بكلام ليعث
فيهم الطمأنينة فلم يزد الحال إلا سوء ثم ولج إلى غرفته و
قد ذرى الثلاثة في حيرة عظيمة .

وضع توفيق على مكتب طارق صكا بمبلغ مالي
ضخم و هو يقول: لو كنت أملك أكثر من هذا المبلغ
لما وسعني إلا أن أكتبه و لكن ها أنا أمنحك كل ما حزنه
في سبيل هدف واحد فقط: أقتل عزيز.

ابتسم طارق ثم طوى الصك و أعاده إلى توفيق ،
فما كان له أن يأخذ منه فلسا واحدا قبل أن يتم مهمته،

هكذا يتعامل مع كافة مرضاه فكيف إذا كان المريض من طرف صديق الصبا، طلب منه الجلوس و الهدوء أولا ثم بدأ يطرح أسئلة كثيرة عن مريم و عزيز، عجز توفيق عن الإجابة عن معظمها ، عندها طلب منه طارق أن يحضر مريم، يا لها من مهمة مستحيلة، لم يكن يرغب الرجل أن تعرف زوجته

_سيموت عزيز بين يدي، كن مطمئنا .. لكن اعلم أن أول خطوة لك هو أن تقنع مريم بضرورة الحضور إلي.

_ أنت تعلم أنّ هذا مستحيل؟

_بل هو أسهل من شرب الماء، حسبما ذكرت لي مريم الآن مقتنعة جدا بإصابة عزيز بالفصام و ما ذكره الراقي بالأمس سيزيدها اقتناعا بذلك ، إذن كل ما عليك فعله هو أن تخبرها بأنك تبغي علاج عزيز و ستستجيب.

حدّق توفيق في طارق مستغربا حديثه فاسترسل

الأخير:

_حبها لعزيز سيجعلها تقتنع بضرورة علاجه،

حاول معها و لا تخف لكن إياك أن تحدثها عن الصداقة

التي تربطنا و إلا ستشك أننا نتآمر ضدها أو ضد عزيز

فتبوء خطتنا بالفشل.

_فإن أبت

_إنها مهمتك يا صاح ، عليك أن ترسخ في ذهنها

أنها الوحيدة التي يمكنها إنقاذ عزيز مما هو فيه كي لا

تدهور حالته و يلقى مصير والده و إني على يقين أنها

ستقبل المجيء.

استقل توفيق سيارته سريعا و يمم وجهه نحو مريم

لينجز أول خطوة في طريق نيل مراده ، كانت مريم تصعد

الدرج إلى بيت عزيز فاستوقفتها اللافتة المعلقة عند باب الشقة و قد كتب عليها عبارة "للبيع" بالبنط العريض ثم أسفل منها وضع رقم هاتف نقال ، شردت بذهنها تحاول معرفة السبب الذي جعل عزيز يعرض منزله للبيع و لم يوقظها إلا صوت توفيق مناديا عليها ، استدارت خلفها و هي تستغرب حضوره

_ أكنت تتبع خطواتي

تردد توفيق قليلا و هو لا يدري ما يقول ثم أراد تغيير الموضوع لكن اللافتة أثارت انتباهه .

_ لقد عرض منزله للبيع، أخشى أن يرحل دون أن يخبرني عن مكانه الجديد .

_ مريم أريدك في أمر هام

__أهم من عزيز الذي لا أدري سبب بيعه لمنزله؟

__بل يخص عزيز

__ماذا هناك ؟

__دعينا نتحدث في السيارة

نزلت مريم الدرج و من خلفها توفيق قبل أن يعود
بسرعة و ينزع اللافطة نزعا ثم يمزقها و يخفيها في جيبه .

صعد توفيق السيارة و مريم تنتظره في قلق شديد ،
ثم راح يخبرها أنه ذهب إلى طبيب نفسي امثالاً لنصيحة
الراقي و أن الطبيب طلب منه حضورها لأنه طرح عليه
أسئلة كثيرة بخصوص عزيز و أنها الوحيدة التي تملك أجوبة
عنها، أطلقت مريم زفيرا مطولا ثم أذعنت لمطلب توفيق و
استسلمت للقاء الدكتور طارق.

بنبرة صوت متأثرة و عينين مغرورقتين في دموع لا
هي جفت و لا هي انسابت فظهرت القلب من الحزن
الكامن في داخله، راحت مريم تحكي لطارق عن عزيز و
راح هو يمسك قلم الرصاص و يخربش على ورقته
البيضاء.

كانت ملامحه توحى بفنان عظيم : كان يبالغ في
تأنقه، وسيم، دائم البشاشة، منطوي بعض الشيء، شعره
منكوش، عيناه بنيتان فيهما جاذبية غامضة ، كان
بشوشا، حنونا، عطوفا جدا، متقلب المزاج كعادة رجال
السرطان لكنه شديد الطيبة ، حتى و هو غارق في
عصبيته كان طيبا جدا ، مخلصا لعائلته ، كان يعشق
البيت حتى انه صنع من الصالون مرسما ليقى في داره

أطول مدة...الآن لم يتبق من تلك العائلة سوى ذكريات

حزينة، زوجة ضمها القبر و طفلة ..مجهولة المصير.

__إذن أنت تصديق قوله أن ابنته لم تمت .

__لا اعلم دكتور ، تارة أصدقه و تارة أشك بأن كل

ما يتفوه به إنما من وحي خياله لكن ...

__لكن ماذا؟

__سأخبرك بشيء إنما...لا أريد لزوجي أن يعلم به

__تفضلي

__أسرّ لي عزيز بالأمس أن أحدهم اتصل به و أبلغه

أن باية عنده.

__و أنت لا تظنين أنه يتصور ذلك فقط؟

- ما كنت لأصدق له لولا أنه طلب مني أن أتأكد من

تاج الدين .

- تاج الدين؟

- أجل، ابني الأكبر ، يقول عزيز أنه كان حاضرا

أثناء المحاكمة و انه سمع صوت باية .

- و لما تريد إخفاء الأمر عن زوجك.

- لأن... توفيق لا يعلم أن تاج الدين يعيش عند

خاله ، إنه يظن انه يبيت في الحي الجامعي و لأنني أيضا

وعدت عزيز ألا اخبر أحدا و أنا اعلم أنه يقصد بذلك

توفيق.

- و لماذا لا يريد لتوفيق أن يعلم شيئا عن الخاطف

و عن باية؟

_ اسمع دكتور، منذ تزوجنا و توفيق لا يطيق عزيز ،
 لست ادري سبب ذلك لكنه لا يجبه ، صحيح انه لم
 يصرح يوما بحقيقة مشاعره تجاه أخي غير أنني متيقنة من
 ذلك لأنني اعرف توفيق مثلما اعرف نفسي و لهذا
 السبب عزيز لا يثق به .

_ و ماذا عنك أنت؟ هل يثق عزيز بك ؟

_نوعا ما ..هو يحبني كثيرا .

_ما دام يحبك فاعلمي انه يطمئن إليك و هذا هو
 مفتاح علاجه .

_ علاجه من ماذا؟

_من المرض العقلي .

_هل هو ؟

__شقيقك مصاب بالشيزوفرينيا اعني الفصام .

__اجل اعرف...انه نفس مرض والدي.

__الأمراض العقلية عادة ما تكون متوارثة، عزيز

دخل مرحلة اكتئاب بعد وفاة باية ، جعلته في بداية الأمر

ينكر موتها ، نحن نطلق عليها اسم النفور الإدراكي و هي

مرحلة طبيعية يمر بها كل من فقد حبيباً، غير أن طول

مدتها جعل الاكتئاب يزداد عمقا و انضم إليها الوسواس

و الذي لا بد و انه كان يعاني منه قبل المرض ، ليتطور

الأمر الآن و يتخيل أشخاصا و أحداثا و يسمع اصواتا و

هكذا تداخل عنده الواقع بالخيال فلم يعد يحسن الفصل

بينهما .

__لكن ماذا لو اتصلت بتاج الدين ..

__سيجيبك بأنه لم يسمع صوت باية...تقني من
 ذلك سيدتي، سأصف لك دواءه و اعلمي أن لا مناص
 من تناوله اليوم قبل الغد كي يبرأ.

و جعل طارق يشرح لمريم و هو يكتب وصفة
 العلاج ما عليه فعله، تسحق حبة الدواء ثم تضعها في
 طعامه أو شرابه دون أن يعلم و عليها أن تبدأ من اليوم
 كيما تتدهور حالته و يصعب علاجه.

انشغل طارق قليلا بكتابة الوصفة ثم انتبه إلى مريم
 و هي تمسك رأسها بيدها متوجعة فأخرج من الدرج حبة
 دواء و قدمها إليها مع كوب ماء ، نظرت إليه مريم و
 الشكوك تحوم حول ذلك الترياق المجهول في يد الطبيب
 فتبسم طارق ثم أخرج لها من الدرج العلبة كاملة و إذا بها
 دواء صداع الرأس ليطمئنها و عاد يكمل كتابة وصفته،

كادت مريم أن تبتلع تلك الحبة لولا أن الشكوك سيطرت
عليها من جديد فرمتها أرضاً ثم شربت الماء ، كان طارق
قد أنهى الوصفة الطبية، ناولها إياها و معها ورقة مرسومة
، جعلت تحديق فيها مذهولة، كان رسماً لعزيز بقلم
الرصاص .

_ ما رأيك؟ هل يشبه عزيز؟

_ إنه هو ...أرأيت صورته من قبل؟

_ كلا...تخيلته من وصفك إياه .

مضت مريم دون أن تنطق ببنت شفة ، و ما إن قام
طارق من مكانه حتى لمح حبة الدواء مرمية على الأرض،
التقطها ، فكر هنيهة ثم أمسك هاتفه النقال و اتصل
بتوفيق .

__توفيق...يجب أن نلتقي بعد ساعة من الآن .

وصل توفيق إلى المطعم النائي عن المدينة و هو
يمسح العرق المتصبب على جبينه بالمنديل و يجيل ببصره
باحثا عن طارق، أخيرا رآه ...كان يجلس مسندا ظهره
للجدار يتناول قطعة البانيني و قد بدا عليه التعب،
سحب توفيق كرسيا و جلس بجانبه بعد أن ألقى السلام
ثم راح يمعن النظر فيه مستغربا هدوءه و راحة باله، أراد
أن يطلب له طعاما فاعتذر توفيق و قد استبد به القلق و
فجأة باغته طارق بسؤال لم يخطر بباله:

__ كيف هي علاقتك بمريم؟

لم يدر توفيق بما سيحب، إنها علاقة عادية تشبه
علاقة أي زوجين بينهما عشرة طويلة و سنوات من المودة

و الرحمة تتخللها بعض المشاكل ، إنه يحب مريم لكنه كأي جزائري يصعب عليه الاعتراف بذلك حتى أمام طبيب نفسي، نالت منه العصبية فرارا من الجواب فسأله:

_ليس قبل أن أعرف سبب هذا السؤال.

أجابه طارق بمنتهى الصراحة بأن مريم لا تثق به و تعلم أنه يكره عزيز و أنه مستعد لإيذائه و في ذلك عائق أمام مراده، إن على توفيق أن يظهر الكثير من العطف و الشفقة و التعاون تجاه عزيز كي يكسب ثقة مريم من جديد و إلا فسيعترينا الشك من الطبيب الذي لجأ إليه ، كان يتحدث و يرقب تقاسيم وجه توفيق ، استحال قلقه ملأ من الحكاية كلها ، ضاق ذرعا بقصة عزيز ، قبل سويغات فقط وضع كل ما يملك من مال بين يدي طارق

ليخلصه منه و الآن أخذت تلك الحماسة تنطفئ ، كان لا بد لطارق أن يوقدها من جديد فراح يسأل :

__و تاج الدين؟

ما إن سمع توفيق اسمه حتى احمرت وجنتاه و امتلأت عيناه بالدموع فحبسهما بمشقة ، ظن أن مريم قصّت على طارق ما كان بينه و بين ولده من شجار دائم بسبب إسراف ابنه الدائم و عدم اهتمامه بدراسته و استهتاره بمستقبله، كان ككل أب يتمنى أن يرى ابنه أفضل منه ، اليوم هو مستعد أن يدفع العمر كله في سبيل لحظة واحدة يرى فيها ابنه البكر ليخبره كم يحبه، بشيء من العطف أخبره طارق أن تاج الدين في دار عزيز أو هكذا تقول مريم، قام من مكانه منتفضا ثم صاح:أوصلت الأمور لهذا الحد؟

لم يتخيل توفيق أبدا أن تاج الدين هو الآخر ضمن
 معمعة عزيز، حتى تاج الدين ابنه الغالي وضع يده بيد
 عزيز ليطوّق والده من كل جانب و البركة في كل ما
 يحدث لمريم

نظر طارق إليه و بنبرة جادة قال:

__عليك أن تكسب ثقة مريم .

__بعد كل ما افعله لأجلها لم اكسب ثقتها بعد؟

__لا يهتمها ما تقوم به لأجلها ، ما يهتمها الآن هو

ما تقوم به لأجل عزيز و الواقع يقول أنك لا تفعل شيئا

سوى أنك تريد التخلص منه.

__مريم لا تعلم ذلك.

__لكنها تشعر به، عليك أن تهتم لأمر عزيز.

__طارق أرجوك ..تريد أن تجني.

__بل أريد أن أخلصك مما أنت فيه، لا سبيل إلى
 قتل عزيز سوى الاهتمام به اعني التظاهر بذلك، أرأيت
 إن كان في البيت فأر ترغب في قتله ماذا تفعل؟ تضع له
 السم في الجبن ، حينها يعتقد الفأر أنك تعني به إذ ترك
 له أكله المفضل بينما أنت تروم هلاكه ...في هذه الدنيا
 كثيرا من الأمور نتمنى حدوثها بينما لو حدثت كانت
 سبب دمارنا. و الآن اتبع توجيهاتي: اسأل مريم عنه و
 عن تاج الدين أيضا حاول أن تقنعها أنك لا ترفض فكرة
 بقاء تاج الدين عند خاله الذي يمر بأزمة صحية تستوجب
 وجود أحد معه في المنزل .

__ و لما افعل ذلك؟ بعيدا عن مسألة كسب ثقة

مريم؟

__ لأن مريم ستحكي لك الكثير عن عزيز و بهذا
 نستطيع تدميره، يا صديقي أنت لا تستطيع أن تهلك
 عدوا تجهله و الآن إليّ بهاتفك

__لما؟

__ستعرف بعد قليل، أدعو الله ألا أكون قد تأخرت
 في إرسال الرسالة.

في الغرفة الصغيرة نام تاج الدين مستلقيا على بطنه
 و سماعات الهاتف في أذنيه و قد تدلت رجليه على طرفي
 السرير و ملاً شخيره أرجاء المكان ، فجأة رن الهاتف
 فأفزع صاحبه الذي قام مسرعاً و قد نزع السماعات و
 رماها أرضاً قبل أن يتفطن إلى أنّ الرنين كان لرسالة نصية

و ليس لمكاملة ، فتح الرسالة و إذا بنصها: " لا تخبر أمك عما سمعته في الهاتف و إلا سأقطع عنك مصروفك".

اندهش تاج الدين من تلك الرسالة و جعل يعيد قراءتها ليتأكد من صحتها، نعم إنه رقم أبي لكن ما الذي سمعته في الهاتف و لا يريد لأمي أن تعرفه، لقد نسي الشاب أمر باية و صوتها تماما لكنه تذكر كل شيء بمجرد أن دخلت مريم إلى الغرفة تسأله عن تلك المكاملة و قد غضت من صوتها خشية أن يسمعها شقيقها.

تردد تاج الدين قليلا و تراءى أمام ناظره نص رسالة والده ثم وضع رسما مكبرا لعبارة سأقطع عنك المصروف، إن والده يدرك أن المال هو نقطة ضعفه الوحيدة، لا ريب إذن في أن يذعن لأمر أبيه ، أعادت مريم سؤالها مرة أخرى و بإلحاح أكثر شدة فما كان له إلا

أن ينكر أنه سمع صوت باية ثم حدّثها أن خاله هو الذي أخبره بذلك .

ألقت مريم بجسدها على السرير محبطة شردت
 بذهنها تفكر في كلام الطبيب، كم تمنّت لو أنه أخطأ
 التشخيص، كم كانت تأمل في أن تسمع من ولدها أن
 باية حية و أن شقيقها بخير و أن ما يحسبونه وهما هو عين
 الحقيقة، الآن لم يعد لديها وقت للبكاء ، عليها أن تبدأ
 بعلاج أخيها قبل أن يهلكه المرض كما أهلك أباهما من
 قبل، فكرت في أن تاج الدين يستطيع مساعدتها، هو
 يعيش مع خاله و يحظى بثقته الكاملة و يمكنه أنه يضع له
 الدواء في الطعام دون أن يشعر.

تمعر وجه تاج الدين بعد أن كلّفته أمه بتلك المهمة
 اللإنسانية، و راح يرفض الأمر و بشدة، إذ كيف له أن

يمنح دواء مرض عقلي لرجل يعلم انه صحيح لا علة فيه
 غير انه عجز عن أن يفهم ذلك لوالدته فانصرفت إلى
 المطبخ غاضبة منه و إذا بها تزدهم بعزيز القادم لتوه من
 الخارج ، لم يكن الرجل في البيت ، كانت السعادة تملكه
 و هو يحمل في يده ورقة مطوية و متأبطا حقيبة سوداء
 قديمة ، حاولت مريم معرفة أمرها لكن عزيز رفض ثم
 دخل مرسمه، تبعه تاج الدين و ما إن رآه الرجل حتى طار
 من مكانه ملوحا بتلك الورقة يخبره أنها عقد بيع البيت و
 يطرق على الحقيبة بأصابعه طرقا خفيفا و يقول أن مبلغ
 الفدية يرقد ها هنا، اليوم هو يوم عيد بالنسبة له، أخيرا
 سيسلم المال للخاطف و يتسلم ابنته الحبيبة بعد أشهر
 من الغياب و الفقد و الوجد، ثم تفتن إلى وجود مريم
 فجعل يسأل تاج الدين سؤال المحقق: هل أخبرت أمك

شيئا؟ و والدك؟ لم تتصل به؟ لم تسألك أمك عني؟ لم

تحدثك عن بيع المنزل مثلا؟

كل أجوبة تاج الدين كانت متشابهة تحمل كلمة

واحدة: لا، ساور الشك عزيز و هم بالحديث لولا أن

مريم دخلت تحمل صينية القهوة ثم وضعتها على المائدة

المركونة في الزاوية و سحبتها إلى السرير و دعتهم إلى

شرب القهوة الساخنة قبل أن تبرد.

كان عزيز قلقا جدا و قد تجاوزته مريم في ذلك و

هي تنتظر لحظة احتسائه الفنجان ، أشعل في البداية

سيجارة و جعل يقلبها و هو يفكر بعيدا ثم خرج من

مرسمه ، دعتة ثانية إلى شرب القهوة فرفض تماما و أخبرها

انه يريد أن يرتاح قليلا ، خاب رجاءها ..عزيز لن يشرب

فنجان القهوة الذي وضعت فيه حبة الدواء و تاج الدين

لا يريد أن يساعدها في علاج خاله ، عادت إلى بيتها
تفكر في شقيقها المريض و تذكر ما تعرض له والدها
بسبب الفصام الذي أصابه أواخر حياته و تدعو الله ألا
يلقى أخاها ذلك المصير البائس.

دقت الساعة الثامنة مساء و ارتجف مع تلك
الدقات قلب عزيز قلقا و حزنا و خوفا، كم يخشى أن
يكون اتصال الخاطف و طلب الفدية مجرد تمثيلية سخيفة
من أحدهم ليمزع أحشاء قلبه كمدا ، ربما يسعى شخص
ما لإيقاد قيس من الأمل في نفسه حتى إذا ما أضاء شعاع
القيس ظلمة حياته اكتشف أن لا وجود لباية سوى في
مخيلته و أن كل ما كان يحياه كان مجرد سراب بقية يحسبه
الظمان ماء ، أشعل سيجارة جديدة و قبل أن تلتقطها

شفتاه رن هاتفه، رمى بالسيجارة أرضاً و بسرعة تناول

الهاتف ، فتحه ، أدناه من أذنه منتبها.

_ألو...هل جهزت المطلوب؟

_أجل و انا أنتظر اتصالك منذ ساعات

_ اركب سيارتك و امض إلى حيث لافتة كتب

عليها "حجرة النص" مقابل شاطئ البحر.

_أجداك هناك؟

_سأعود الاتصال بك حين وصولك .

أنهى الخاطف مكالمته و وثب عزيز على الحقيبة ،

عابها للمرة الألف، لا تزال الأوراق النقدية رابضة هناك

و قد دكت دكا ، لبس سترته على عجل و تأبط حقيبته

ثم مضى قبل أن يعود لأخذ مفاتيح سيارته.

كانت حبات المطر تتساقط على زجاج السيارة و
عزيز يسوقها لا يفكر في أمر سوى أنه سيلقى ابنته بعد
لحظات، الآن فقط صار يؤمن بنظرية نسبية الزمن ، لكأن
أحدهم أمر الطريق بأن تتمدد حتى صار الوصول إلى
حجرة النص من مدينة شرشال يأخذ ردها من الزمن ،
أخيرا وصل إلى عند اللافتة ، توقف و جعل يطل من
سيارته عليه يظفر لرؤية شخص ما ...لا أحد في المكان ،
لم ير سوى أضواء خافتة تخرج من المساكن و لم يسمع
سوى صوت أمواج البحر المتلاطمة، كم كان الجو كئيبا
انعكس على أحاسيس عزيز فلم يعد يشعر سوى بحزن
يعتريه ... ترى هل حقا ستعود طفلة إليه اليوم؟ رن
الهاتف ثانية .

__ألو...نعم لقد وصلت إلى المكان .

أعلم ذلك الآن انطلق بسيارتك إلى قبر الرومية و
عندما تصل سأكلمك .

رباه... لما لم يأمرني بالذهاب إلى قبر الرومية من
شرشال ؟ لما يجبرني على قطع كل هذه المسافة ؟ قفل
عزيز ذاهبا إلى قبر الرومية إذعانا لأمر الخاطف، وصل إلى
هناك .. كان المكان موحشا جدا ، لا يزال صوت أمواج
البحر يسمع من بعيد ، انضم إليه صوت آخر
.. خشخشة نعاله على الأرض، شغل مصباح هاتفه
ليتمكن من رؤية ما حوله ... لا شيء يوحي أن شخصا ما
يتواجد هنا .. ترى هل هي مكيدة دبّرت ضده؟ أخيرا
وجد نفسه أمام ذلك الصرح العظيم قبر يضم كليوباترا
سيليني و زوجها يوبا الثاني ، ماتت هي قبله فبنى لها هذا
الضريح ثم أوصى بأن يدفن إلى جانبها في قبر واحد فكان

له ما أراد... كلها علامات تشير إلى أن باية لن
تعود... لمجرد أن يفكر في ذلك يكاد يغشى عليه : كلا بل
ستعود بإذن الله لكن القبر و المكان رأيتهما من
قبل.. كان يحدث عزيز نفسه ..أجل أعلم أنني في هذا
المكان سحت منذ نعومة أظفاري لكن صورة الضريح
توحي لي بشيء رأيتة قريبا...ومضت بين ناظريه تلك
اللوحة التي عثر عليها في مرسمه : قبر عظيم تطل منه
دمية باية ..أجل اللوحة كانت تدل على أن شيئا ما
سيحدث في هذا المكان ...ما الخطب؟ ما قصة تلك
اللوحات ؟ لوحة امرأة يظهر فيما بعد أنها تشبه المغسلة و
طبيب...الطبيب الذي كتب تقرير وفاة باية و الآن ذلك
الضريح ...لا بد و أن أتبع تلك اللوحات لأهتدي إلى
طريق الخاطف...مرة أخرى رن هاتفه .

_لقد وصلت إلى قبر الرومية .

_ سر إلى وسط القبر ثم ضع الحقيبة سيأتي أحد
رجالي ليتأكد من وجود المبلغ المطلوب فيها و بعدها
ستجد ابنتك بين أحضانك.

_انتظر... ما الضامن أنني إذا سلمتك المبلغ
ستسلم لي طفلي و أنا لم أمتع عيناى برؤيتها بعد؟
_أبصر أمامك .

نظر عزيز أمامه و إذا برجل ملثم لا يبن له ملمح
خرج من زاوية القبر يمسك بشيء ما ... ثم بدى له أنه
يمسك يد ابنته باية ، كانت الطفلة معصوبة الفم استبد بها
الخوف حتى استحالت شبحا ما إن رآها عزيز حتى صرخ
مناديا عليها يذرف الدموع من عينيه ثم تذكر الاتفاق ،

أسرع بالمشي حتى توسط القبر ، وثب على ركبتيه يضع
الحقبة ..هم بالوقوف و إذا برجال يصيحون .

_سلموا أنفسكم ...أنتم محاصرون من الشرطة .

شرب عزيز كوب الماء بنهم و ضابط الشرطة يحدق
فيه بغرابة لا يدري أيصدقه أم يكذبه ؟ أيعقل ألا يكون
جزء من تلك العصاة التي دبرت الشرطة مصيدة
لإيقاعها في ذلك الوقت تحديدا؟ أيعقل أن الصدفه
جعلت شخصا ما يحضر إلى نفس المكان و في نفس
التوقيت ليفتدي ابنته؟ إن ملامح عزيز كلها تؤكد أنه
رجل لا علاقة له بعصابة تباع الأقراص المهلوسة لكن
تعلم من ممارسته لمهنته أن المظاهر خداعة و أن كثيرا من

الذئاب تستطيع أن تلبس جلود الخرفان دون أن ينتبه
لمكرها أحد .

_سيدي الضابط لو كنت مجرد دعيّ فما علاقة
مبلغ ضخّم كهذا الذي عثرتم عليه بين يدي بيع
مهلوسات ؟ أنا احمل نصف مليار سنتيم و لو كانت نيتي
أن اشترى أقراصا لكفاني ربع هذا المبلغ و لو أنني بعت
لأحدهم و قبضت هذا الثمن فأين هو المشتري؟
لم يرد الضابط على كلام عزيز بل التفت الى شرطيه
المساعد يطلب منه حقيبة الرجل و هاتفه النقال.

وضع الشرطي الحقيبة السوداء على مكتب
الضابط و معها الهاتف ففتحها و عزيز ينظر مهتما ،
قلب الضابط جيّدا تلك الأوراق و جعل يرمق عزيز
بنظرات شك و ريبة ثم قال:

__أخرجه إلى الرواق .

تسارعت دقات قلب عزيز و قد أخرجه الشرطي إلى الرواق، جلس متكئا لا يفهم ما يحدث حوله ، بينما أمسك الضابط هاتفه و جعل يفتش عن المكالمات التي أجراها ، بعد نصف ساعة حضر توفيق إلى قسم الشرطة، كان عزيز يسند ظهره إلى الجدار مغمضا عينيه و رجلاه ترتعشان قلقلًا .

__ أنت على ما يرام؟

فتح عزيز عينيه و هو لا يصدق أن توفيق معه، كيف عرف أنه هنا؟ لا بد و أن الضابط اتصل به، ربما يعرفه من صديقه الضابط الآخر، ربما هو من أبلغه ، تذكر في تلك اللحظة مجيء الشرطة في الوقت الذي رأى فيه ابنته ، أيكون كل الذي حدث مؤامرة من توفيق ؟ و

ما الذي سيجنيه من تلك المؤامرة؟ إن كان يريد المال فقد
أحضر له المبلغ كاملاً؟ تساؤلات كثيرة كانت تدور في
عقل عزيز لم يقو على ردها فانفجر
قائلاً: فهمت... الخاطف هو الذي أخبرك... أنت من
يقف وراء كل ما يحدث... لماذا تفعل ذلك؟
أخبرني.. أخبرني و إلا بلغت عنك الضابط .

كانت كلماته المبعثرة دليلاً كافياً على عدم اقتناعه
بما يتفوه به، كان كل ما يريده هو استفزاز توفيق للوصول
إلى تفسير للذي جرى و كان توفيق يقف صامتا ببرود
كأنه تمثال ، برود أخاف عزيز منه فانقلب من مهدد إلى
متوسل: أرجوك أعد إلي ابنتي حية سأمنحك كل ما
تريده.. إن شئت أن أذهب بلا رجعة سأفعل لكن سأرحل
مع باية .

نادى الشرطي المساعد توفيق إلى غرفة الضابط
 فدخل فيما اتكأ عزيز على الحائط مستسلماً لدموعه،
 بعد عشر دقائق أو أقل خرج توفيق يحمل الحقيبة و
 الهاتف و ناشد عزيز بالذهاب الى الدار.

__ماذا تقول؟ لن أذهب الى اي مكان قبل ان
 اعرف مصير ابنتي .

__و ما علاقتي بذلك؟

__هناك احتمالين: إما انك كنت تقتفي أثري و إما
 أنك على صلة مباشرة بالخاطف و هو الاحتمال الأقوى
 لأنك الوحيد الذي عرفت أنني في قسم الشرطة ...لما
 فعلت ذلك؟ لما اخترت هذا المكان و الزمان؟ ليقبضوا
 علي؟ لأحدثهم عن باية فيتهمونني بالجنون؟ الآن

أدرکت لماذا غیر الخاطف الوجهة... الضابط متواطئ؟
سأفضحکم جميعا إن لم تأتوني بابنتي.

حاول توفیق أن یهدئ من روعه فلم یقدر، فقد
جن جنون الرجل و علا صراخه المكان حتی جاء رجال
الشرطة و أمروا توفیق بالخروج حالا من المركز ففعل و
هو یطوق عزیز بکلتا یدیه و بمشقة أخرجه و امتطیا
السیارة معا ، منحه قارورة ماء لیشرب فامتنع ، کان
یلهث بشدة و العرق یتصبّب علی جبینہ، أما توفیق فبدأ
حیرانا أیذهب به إلى طارق أم إلى الدار ؟

کان عزیز إذاک یفکر بینہ و بین نفسه : لو ابتغی
توفیق أذیتہ فلن یفعل ذلک الیوم حتی لا تحوم حوله
الشبهات ، ثم تذاکر أمر الحقیقة ، ابحت عنها فوجدھا
ملقاة خلف کرسی توفیق فقفز نحوھا و ضمھا إلى صدره

و توفيق يرقبه مشدوها قبل أن يتنفس بعمق و يشغل
المحرك.

_ماذا تريد؟ أنا مستعد للقيام بكل ما تطلبه مني
نظير أن تعيد إلي ابنتي .

سأل عزيز توفيق و هو ينظر إليه متوسلا و توفيق
يلزم الصمت.

_كنت قاب قوسين من أن أفتديها لماذا حيل بيني
و بينها ؟ لم تكن ترغب في تقاسم المبلغ مع الخاطف؟
أليس كذلك ؟ خذه هو لك كله لا حاجة لي به و أعد إلي
باية و اقتطع تعهدا مني ألا تراني إلى أن يضحى ظلي .

أوقف توفيق السيارة بعنف ، نزع الحقيبة من حجر
عزيز و فتحها أمامه ثم غمس يده في داخلها ليخرج
مجموعة أوراق قديمة

ـأهذا هو المال الذي تعنيه؟

لم يصدق عزيز و هو يرى الأوراق النقدية التي
كانت تملأ حقيبته قبل ساعات قد استحالت أوراق
صفراء قديمة ، قبل سويعات فقط كانت مليئة بنصف
مليار سنتيم ، عدّها بنفسه عدا ، لا شك أنّها استبدلت
بهذه الأوراق البالية داخل مكتب الضابط ، الآن اتضح
كل شيء: توفيق خطط و دبّر كل شيء ليحقق غايتين:
جني المال و اتّهامه بالجنون، لم يستسلم الرجل و أخذ
يفتش جيوب سترته إلى أن استخرج من أحدها ورقة
مطوية ، بسطها بين ناظري توفيق مبتسما يحسبها دليل
صدقه، ... كان يظن أنّها لعقد بيع الشقة ليفاجأ و توفيق
يعيدها إليه :إنّها فاتورة الماء !!!

بالفعل...لم تكن الورقة سوى فاتورة ماء لا عقد
بيع، كان عزيز يمعن النظر فيها بعينين محمرتين و يومئ
برأسه منكرا ما يراه .

_أنت شيطان.... اصطنعت كل هذا لاثامي
بالجنون أبدلت أوراقا قديمة بأوراقى النقدية و فاتورة ماء
بعقد البيع و لا غرو أن من الشرطة من تواطأ معك في
فعلتك هذه...لكنك لن تنجو مني توفيق ..صدقني لن
تنجو.

قال عزيز تلك الكلمات و الإحباط ينخر فؤاده ثم
صمت طيلة الطريق فلم ينبس ببنت شفة إلى أن وصلا
الدار، ولج عزيز غرفته مسرعا ، أغلق على نفسه الباب ،
توجه نحو تلك اللوحات المشئومة يقلبها لوحة بعد أخرى،
مادامت أفصحت عن قبر الرومية فلا شك أنها ستخبره

بالخطوة القادمة ، جعل يعيد النظر إليها باحثا عن شيفرة
تقوده إلى المجهول الذي ينتظره ، اهتدى أخيرا إلى لوحة
أخرى غريبة لم يرها من قبل ، هو على يقين أنها لم تكن
موجودة : جبل شاهق يعلوه ضريح يبدو لولي صالح ،
أسفل منه بقليل بناء قديم رسم عليه صليب و فيه بعض
النوافذ كانت كلها مغلقة إلا واحدة يظهر منها شيء
يطل ، أدنى اللوحة منه ، فرك عينيه جيدا ليكتشف أن
دمية باية كانت في تلك النافذة ... باية موجودة
هنا... لكن ما هذا المكان ؟ راح يخطو الغرفة جيئة و
ذهابا ممسكا اللوحة بكلتا يديه ، يضني نفسه جاهدا
لمعرفة وجهة ابنته الجديدة ، كان توفيق يطرق باب الغرفة
بشدة طالبا بفتحه ، وكان عزيز يسمع صوت توفيق
بعيدا ، لم يشغل باله في تلك اللحظة سوى كشف سر
هذه اللوحة ، إن أحدا ما استغل غيابه و وضعها مع بقية

اللوحات لينبئه بما سيقوله الخاطف في الاتصال اللاحق،
 عليه أن يحل لغزها و أن يسابق الزمن لمباغطة ذلك المجرم
 و إنقاذ باية من مخالفه... جبل شاهق و ضريح ولي صالح
 و كنيسة !!! لا تجتمع هذه الأماكن الثلاثة إلا في وهران
 حيث الجبل العظيم المطل على المدينة و ضريح مولاي
 عبد القادر يعلوه و أسفل منهما كنيسة سانتا
 كروز.... أجل باية هناك في سانتا كروز قالها عزيز فرحا و
 قد عقد العزم على الرحيل إلى هناك قبل أن يحل الظلام
 لولا أن داهمه توفيق و معه طارق اكتملت العصابة الآن و
 أدرك عزيز من الذي يعين زوج أخته على كل هذا الجرم ،
 صرخ بأعلى صوته غير أن طارق سارع بغرز حقنة في
 رقبته أردته مغشيا عليه ليغط عزيز بعدها في نوم طويل.

كم كان ذلك اليوم عصيباً على توفيق، و قد وجد
 في حديثه إلى طارق ما يخلصه من حطام قلبه، كان يشرب
 صديقه الطيب تارة و يلوم نفسه تارة أخرى إذ تقاعس
 عن وضع حد لعزير هذا حتى تغول فما عاد يشيه عن
 مراده شيء.

_الشرطة !!!بلغ الأمر الشرطة !!! لم أتصور أبدا
 أن تنفلت العقد إلى هذا الحد.
 _اهدأ يا صاح و اعلم انك قد اخترت طريقا وعرة
 و إنما نحن في أوله فالصبر الصبر إلى أن يتحقق مبتغاك .

لم يقنع توفيق بحديث طارق، لقد وعده أن ينتهي
 كل شيء و إذا بحياته تزداد سوءا

_إن كنت في مريّة من أن أصل بك إلى مرادك
 يمكنك اللجوء إلى طبيب غيري .

قالها طارق و هو يعلم أن صديقه لن يرضى
 بتبديله، فالرجل ليس مستعدا أن يحوّل حكايته مع زوجته
 إلى مشاع و هو الذي عانى أيما معاناة قبل أن يرويهـا له،
 أخيرا امتثل للواقع و بنبرة حزن سأله عن الحل و كم كان
 الجواب صادما:

__يؤسفني أن أبلغك أنّ الخيار الوحيد المتبقي هو
 المستشفى .

__ مستشفى الأمراض العقلية ؟ مستحيل

__إنه المكان الصحيح لعلاج مثل هذه الحالات .

__أنا لا اقبل بذلك، ثم إن مريم لن تتقبل الأمر .

__ و ما شأن مريم؟ نحن سندخل عزيز إلى المستشفى

لا مريم .

نظر إليه توفيق بعينين تعتصران ألما و حزنا فأراد
طارق أن يطمئنه قائلا: عموما لن نستبق الأحداث، حقنة
اليوم ستكون كافية لتلافي عزيز شيئا فشيئا لكن الدواء
مهم جدا ، كنت أخطط للاستعانة بمريم كي يتجرع عزيز
الدواء غير أنني أرى ذلك مستحيلا بعدما جرى اليوم و
كذلك تاج الدين لم يعد مستودع أمان لعزيز و أنت
موضع شك لدى مريم...هي لن تسمح لك
بذلك...أظني وجدت من أوسد إليه هذه المهمة دون أن
يتفطن أحد : لا مريم...و لا عزيز إن بقي فيه عمر .

فتحت مريم عينيها على صوت المنبه، كانت
الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحا ، لم تصدق أنها
نامت كل هذا الوقت و لم يسع لإيقاظها أحد ، ما إن

اعتدلت في جلستها على السرير حتى رن هاتفها، كان زوجها هو من اتصل للاطمئنان عليها و عوض أن تشكره راحت تلقي عليه شتى أنواع اللوم و العتاب أن ذراها تنام كما تشاء ، انتهت المكالمة على وقع طرق باب الغرفة ، أذنت للطارق بالدخول فإذا به ابنها الصغير أيوب قدم إليها حاملا صينية عليها كوب عصير البرتقال الطبيعي المحبب إلى قلبها و قطعة كرواصون ، ففرحت به أيمًا فرح و هي تراه يخدمها لأول مرة في حياته ، و لأنهما لم تقاوم رؤية ذلك الكوب البرتقالي الجميل راحت تشربه قبل أن تنهض لغسل وجهها .

بعد ثلاثة شهور:

تجلت نبرة السعادة بوضوح في صوت توفيق و هو
يروى لطارق كيف تبدلت أحوال أسرته منذ تخلصها من
عزيز، لم يصدق أن زوجته عادت إليه مثلما كانت أو ربما
أفضل: هذه مريم التي تزوجتها قبل عشرين عاما، امرأة
مرحة كالطفلة، نشيطة كالفراشة ، لا تُر إلا هاشة باشة
تنفث البهجة في جنبات بيتها، إنها مريم عاشقة الطبخ لا
يكاد يمضي يوم إلا و جرّبت وصفة جديدة مألوفة و
حلوة، كارهة للروتين محبة للتغير، تغير بين الحين و الآخر
ديكور بيتها، لون شعرها أو تسريحته، تتصدق بين الفينة
و الأخرى بملابسها كي تجدد خزانتها، إنها مريم التي تحب
التسوّق لا لنفسها فقط بل لإسعادنا أنا و أولادها أيضا
فتقتني لنا الملابس الجديدة و تفرح بارتدائنا لها أيما فرح ،
إنها مريم المعنينة بنظافة نفسها و بيتها ، المواظبة على
صلاتها و وردها القرآني ، المشاركة في أعمال الخير ،

القارئة للكتب بنهم عجب ، أتعلم يا طارق لقد طلبت
مني قبل أسبوعين أن تزور قبر الفقيد ؟ وددت لو لم تكن
خارج البلاد وقتها فأتصل بك أو آتي إلى عندك لأقبل

يديك على حسن صنيئك

أخيرا اعترفت أنه مات ، ذهبنا إلى القبر فقرأت
الفاخرة و دعت له طويلا فلما عدنا وجدتها أخرجت
صورته التي كانت خبأتها في درج المكتبة و وضعتها بحذاء
التلفاز ، تخيل...صارت الآن تنظر إلى صورته في كل وقت
و حين و بنفس راضية مطمئنة تترحم عليه .

لم تكن فرحة طارق بأقل من فرحة توفيق ، لقد
نجحت الخطة و توارى عزيز خلف الحجب فلم يعد له
وجود، و رجعت مريم إلى سابق عهدا ، لكن ثمة حدث
لم يخطر ببال توفيق رغم شدة التوصيات التي كان يتلقاها

من طارق بشأن وضع مريم تحت المراقبة ، لقد تساهل معها في الآونة الأخيرة و لم يعلم أن ثمن ذلك التساهل سيكون غاليا.

كانت مريم تنزع الملابس من حبل الغسيل المعلق في شرفة غرفتها حين سمعت طرقا على الباب ، دخلت فإذا بتاج الدين يقف و قد شحبت سحنته ، ينظر إليها بطرف خفي كأنما يرغب كشف سر ما فلا يقوى على ذلك ، وضعت أمه سلة الملابس على الأرض و هي تحدّق به و بعد لحظات صمت فتحت خزانها و أخرجت منها رزمة أوراق نقدية ، أعطتها كما هي لابنها ظانة أنه جاءها ابتغاء المال لكنه أشاح بوجهه عنها و هو ينطق كلمتين اثنتين: خالي عزيز، ما إن سمعته مريم حتى شعرت بقشعريرة تنتاب جسدها و قد حسبت أن مكروها

أصاب شقيقها ، هنالك جعل تاج الدين يذكرها بأمر
 المكاملة التي سألته عنها ذات يوم و بنظرات حزن تعرب
 عن وخزات ضميره صارحها أنه سمع صوت باية و أن
 خاله ليس مجنوناً مثلما زعم الطبيب الذي أحضره والده.

لا تكاد تصدق مريم ما تسمع، كانت كل يوم
 تصارع قلبها و هو يحدثها أن عزيز مظلوم و أنه تعرّض
 لمكيدة ما ، كانت تصد تلك الأصوات المنبعثة من صميم
 فؤادها بمشقة كبيرة، لما فعلت ذلك؟ لما لم تصدّقها؟ لأنها
 أنانية ، تلك هي الحقيقة المرة التي لا مناص من إنكارها،
 إن الإيمان بصحة شقيقها العقلية يقابله خسران توفيق ،

لأجل ذلك آثرت زوجها على أخيها و النتيجة أن عزيز
 ضاع منها إلى الأبد، و في غمرة إحساسها بخذلانه برق
 وميض أمل من فيّ ابنها حين أخبرها أن خاله ليس بميت

إنه حي يرزق ، فقد سمع والده قبل أيام يحدث الطبيب في
الهاتف و فهم من مكالمته أنه سجين في مكان ما.

لم تكتمل سعادة مريم و هي تعرف نصف الحقيقة أو
ربما هي لا تعرف شيئاً سوى تخمين ابنها أن خاله لم يفارق
الحياة ، أجلسته بقربها و هي تحاول أن تسترجع معه ما
أصغت إليه آذانه عليها تلتقط معلومة تدلها على مكان
عزيز لكن دون جدوى، يبدو أن زوجها كان يحدث
صديقه بالغاز ، كلمات مبشرة لن تؤدي معرفتها لأي
نتيجة.

فجأة طرق يحي باب الغرفة و دون أن يدخل سأل
أمه إن كان بها شيء إنه يحي يسألها إن كان بها شيء
فطمأنته عن حالها ثم مضت في حديثها إلى تاج الدين ،
لكن يحي لم يهدأ له بال و هو يصغي لأصوات هامسة

تنبعث من غرفة أمه، فوقف يسترق السمع، كان تاج الدين قد أخرج ورقة مطوية من جيبه ، بسط بين يدي والدته و قال: أعتقد أن خالي هاهنا.

قلب مريم الورقة جيدا، كانت لوحة لبيت على الطراز الكولونيالي وسط بستان مخفوف بالأشجار ، هذا البيت يعني لها شيئا أو يشبه مكانا تعرفه من قبل، سألتها ابنها بالحاح إن كان في مقدورها معرفة المكان ، تفحصت اللوحة باهتمام كبير و بعد لحظات صاحت: إنه بيتنا، نعم هذا بيت جدك القديم في بوفاريك لكن...لم يعد له وجود اليوم فقد صار حطاما لما تبقى من غرف بليت جدرانها بعد أن وقع سقفها ذات ليلة عاصفة ، و لئن كان عزيز هنا مثلما تقول فهو بلا شك يصارع الموت في كل لحظة ، هذا إن لم يكن....

حنقتها العبرات و هي تتصور أن شقيقها تُرك للبرد
و الجوع كل تلك الأيام و هي التي تحسبه قد مات و تزور
قبره لترحم عليه بين الفينة و الأخرى، ثم تفتنت لتاج
الدين و هو يروي لها قصة تلك اللوحة، لقد شهد خاله و
هو يخرج اللوحات الموجودة في مرسمه ليفك شيفراتها، و
مع أنه لم يصدقه بداية لكن و بمرور الوقت تأكد مثله أن
اللوحات تحمل ألغازا تخص حياته و أن أحدهم لا محالة
كان يضعها هناك ليعث له رسالة ما ، و عندما سمع ما
دار بين والده و صديقه الطبيب تذكر تلك اللوحات
فراح يفتش فيها عما يدلّه على طريق خاله فلم تكن إلا
هذه.

بسرعة فتحت مريم الخزانة و أخرجت منها حجابا
و خمارا ثم خرجت من الغرفة و يحي خائفا يرقب ما يجري،

سألها مرة أخرى عن حالها فأوصته بنفسه و أخيه خيرا و
أبلغته أنها لن تبطلئ ثم ودعته و مضت و قد استبد بها
القلق، أما يحي فقد طار إلى غرفته، أغلق بابها و راح
يتصل بوالده و حكى له كل ما سمع فطلب منه الأخير أن
يبقيها تحت عينيه و أن يروي له بالتفصيل كل أمر مريب
يشهده.

لم تتفطن مريم لطول الطريق إذ وجدت نفسها قد
وصلت إلى بيت أبيها، كان حوشا جميلا مليئا بالنباتات و
الأشجار ، أخذت تبحث فيه عن أخيها فلم تجده، كادت
أن تياس لولا أنه جال في خاطرها أن يكون مغلولا داخل
ذلك الحطام الشبيه ببقايا بيت، ولجت إلى هناك ، طفقت
تزور الغرف غرفة بغرفة ، كلها غرف خاوية ليس فيها
سوى جدران متآكلة من شدة الرطوبة ، لم تكن تسمع

صوتا إلا صوتها و هي تنادي على عزيز ضم إليها صوت
قطرات مياه تنساب من صنوبر الحمام ، دخلت المطبخ ،
كانت الطاولة الحديدية الصدئة لا تزال في موضعها الذي
تركته فيه قبل أعوام ، و في إحدى أقدامها ربط حبل
غليظ ، تبعته و إذا بجثة منزوية في ركن المطبخ منكئة
الرأس ... إنه هو ... إنه عزيز .

رفعت رأسه ، كان شاحب اللون ، غائر العينين ،
يتنفس بصعوبة بالغة ، لم تصدق نفسها و هي ترى
شقيقها الذي اعتقدته ميتا لا تزال تدب فيه الحياة ،
جعلت تناديه باسمه و هي تبكي ، تعانقه كالمجنونة محاولة
أن تعيد إليه أنفاسه حتى لا يرحل عنها ، أدركت أنه
يصارع الموت ، راحت تبحث عن بعض الماء فلم تجد إلا
صُبابة في قارورة بلاستيك ، اصطبتتها في فيه فأينع بعد

ذبول، أخيرا تمكن من فتح عينيه و التعرّف إليها، عانقته بشدة و ازداد بكاءها و هي ترى حال أخيها إذ نقص وزنه فاستحال شبحا و احتلت حية كثة وجهه ، أشفقت عليه و هي ترى ملابسه البالية ..ملابس لا تقيه حمارة قيظ و لا صبارة قر .

رمقها بنظرات عتاب كأنه يقول الآن فقط تذكرت أن لك أختا تسألين عنه، لكأنها سمعت ما يعتلج في داخله فراححت تعتذر إليه و تؤكد لها أنها حسبته مات و أن زوجها ساقها إلى قبر ادعى أنه قبره، الآن فقط فهمت مريم المؤامرة الخبيثة التي حاك خيوطها توفيق بمساعدة طارق، الآن علمت أن شقيقها ما كان مجنونا قط، و أن ابنته لم تمت بل اختطففت ، لكن ما لم تستطع فهمه ما سبب كل الذي يحدث؟ لماذا يريد أن يكون مجنونا؟ ثم

لماذا يزعم أنه مات بينما يرمي به بعيدا عن الأنظار؟ أ
يعقل أن تكون الضغينة التي يحملها في صدره تجاه عزيز
سببا في كل هذا الشر الذي يقترفه بحقه؟ ثم جعلت تقسم
لأخيها بأغلظ الأيمان أنها لن تعود إلى توفيق حتى يلج
الجميل في سم الخياط، راح عزيز يومئ لها برأسه معترضا .

- تريدني أن أعود إلى قاتلك؟

بعسر كبير تمكن من لفظ بضع كلمات: عودي إليه
لتكشفي سرّ ما يجري.

ثم قام بصعوبة بالغة و كاد أن يسقط لولا أن تلقفته
يدي مريم ، سألته إلى أن يذهب و هو في هذه الحال
فأجاب أنه سينقذ باية ، إنها في سانتا كروز ، هذا ما
أفصحت عنه تلك اللوحة التي قلبها ذات يوم قبل أن
يلقوا به وسط هذا الركام.

و لأنها تعلم أن شقيقها لن يحيد عما في باله قيد
 أنملة لم تبذل أي جهد كي تقنعه بأن يترىث حتى يصير
 حاله أفضل، بل اشترت له قطعة ساندويتش و قارورة
 عصير و ودعته إلى دارها .

كان يحيي يخبر والده بكل ما يراه و يسمعه و قد
 اقتفى أثر والدته، كاد توفيق أن يجن، اتصل بسرعة
 بالدكتور طارق و أعاد على مسمعه كل ما يجري فأجابه
 أن هذه الانتكاسة لا تحدث إلا بسبب التغافل عن شرب
 الدواء ثم أمره بأن يذهب إلى البيت و يفتش في صندوق
 القمامة فثمة الإجابة قبل أن تطرأ على باله فكرة جديدة
 تجعله يطلب من توفيق اصطحابه إلى داره..

على عجل وصل توفيق إلى عيادة الدكتور طارق،
 كان في انتظاره على قارعة الطريق و بمجرد ان ركن

السيارة قفز طارق فيها و أعطى توفيق ورقة جديدة ثم
قال:

_أعتقد أننا لم نستثمر في شأن اللوحات كما
ينبغي رغم أنها سبيلنا الوحيد للتحكم في مريم من خلال
عزيز .

نظر توفيق الى تلك الورقة ، كان طارق قد رسم
فيها بناء عظيما أبيض تحيط به حديقة
_أليست هذه...

_أجل ، إنها هي، أملنا الوحيد في هلاك عزيز ا
لأبدي.

نكص توفيق رأسه و قد نال منه الجهد و الإحباط
معا، تهاوى أمام عينيه كل أمل في أن تعود أوضاعه

العائلية كما كانت سابقا ، ربت طارق على كتفيه داعما ،
 كانت مشاعر كثيرة تختلج صدر توفيق : هل يستطيع أن
 يقنع مريم بموضوع المستشفى أم أن الثقة التي اكتسبها
 لشهور خلت لم يعد لها تأثير على زوجته بعد اليوم ؟؟
 فهم طارق حيرة صديقه فحدثه بحماسة: لم يتبق لنا سوى
 خطوة... خطوة واحدة و نتخلص نهائيا من عزيز و
 حكايته كن صبورا تصل إلى هدفك .

رن هاتف توفيق كان يحي هو المتصل و قد أخبره
 أن والدته في غرفتها الآن و قد قلبت عاليها سافلها
 تفتش عن شيء ما لم يستطع تحديده ، هنالك نصح طارق
 توفيق بأن يتوجه فورا إلى داره وطمأنه بأن يلحق به في
 الحال.

كانت مريم تفتش بشكل هستيري عن سبب واحد
لما قام به توفيق ، قلبت خزانة الملابس قلبها فلم تعثر
على شيء ، راحت تقلب أدراج الكومود الواحد تلو
الآخر ، الدرج الأخير هو الذي يضع فيه زوجها أوراقه
المتعلقة بالعمل ، أخرجته بالكامل ، نفضته نفضا ، جعلت
تخرج ما فيه من ملفات ثم تستخرج من كل ملف أوراقا ثم
تقرأ تلك الأوراق واحدة بواحدة ، حتى الآن لم تجد سوى
عقود و فواتير .. انتهت من كل الملفات بلا جدوى ،
جالت ببصرها في أنحاء الغرفة تبغي اكتشاف مكان آخر
يخبئ فيه توفيق سرّه و عبثا فعلت ، أخذت تعيد الملفات
إلى الدرج و هي تبكي بحرقة على ضياع عمرها مع رجل
مكر بشقيقتها الوحيد إذ لم يكتف بأنه اتهمه في عقله بل
جعلها تصدق أيضا أنه مات بينما كان يجلسه في ذلك
البيت المهجور ، بينا هي تعيد الدرج إلى مكانه تحت ظرفا

بريديا كانت قد وقع أسفل الدرج ، مدت يدها إليه و
 فتحته بسرعة ... رسالة من أحد أقاربها يخبرها فيها أن
 زوجة أبيها توفيت ...

كان توفيق قد وصل للتو إلى البيت ، وجد يحي
 يحاول إلهاء أخيه الأصغر أيوب باللعب على اللوحة
 الالكترونية ، بمجرد أن رأى والده جرى نحوه ليخبره بكل
 ما سمع ، و رغم القلق الذي كان يكابده استطاع توفيق
 أن ييث الطمأنينة في قلب ابنه ، تذكر وصية طارق
 فأسرع نحو قمامة المطبخ و قد وضعت في الشرفة في
 انتظار إخراجها صباحا ، ثلاثة أكياس مكومة شرع في
 تفتشها كيسا بعد كيس .. أخيرا عثر على تفسير لما
 حدث .. كم كان صديقه محقا إذ اتهمه بالتغافل !!

دخل توفيق على مريم فوجدها جالسة تقرأ الرسالة
 باهتمام ، فلما رآته توقفت و جعلت تمعن النظر فيه ، ثم
 أشارت إليه بتلك الرسالة : لما لم تخبرني أن زوجة أبي
 توفيت ؟

_ لأنك كنت ... كنت حزينة جدا بعد الوفاة فلم
 أشأ أن أزيدك على الحزن حزنا .

_ وفاة ميت لم يمّت؟

_ ماذا تقصدين؟

_ لا تحاول الإنكار، عرفت كل شيء، لقد عدت
 لتوي من عند عزيز .

حدّق توفيق النظر في زوجته في ذهول تام حتى أنه
 لم يللم شتات كلمات ليحدثها بها ثم راح ينظر إلى الغرفة

الغارقة في الفوضى و قبل أن ينطق بسؤال ردت عليه
 مريم: كنت أبحث عن جواب لسؤال الوحيـد ...لما فعل
 توفيق كل ما فعل؟ تبلغني بوفاة باية و تقيم لها عزاء و
 تشارك في دفنها بل إنك تتظاهر بلحدها بنفسك فلما
 يشك عزيز في أمرك تتهمه بالجنون و لتجعلني أصدقك
 تقنعي بلقاء طيب لا ريب في أنه شريكك في جرمك ، ثم
 يخفي عزيز و تجعلني اعتقد أنه مات ليتبين أنك سجنته .

_لست وحدك من ظننت أن عزيز قد مات...كلنا
 ظننا ذلك .

ضحكت مريم بقهقهة عالية و نظرت بسخريـة إلى
 زوجها و هي تراه مصراً على تمثيليته السخيفة ثم مدّته
 الرسالة التي عثرت عليها

_ لم أجد ضالتي إلا في هذه الرسالة ... كنت تعلم أنه بعد وفاة زوجة أبي لم يعد هنالك من يرث ممتلكات والدي سوى أنا و شقيقي فحملك حب المال على التخلص منه لأحصل أنا على كل شيء، و من يدري لعلني كنت ضحيتك القادمة بعد عزيز فتنازل كل ما بقي لي من ذكرى أبي .. لهذا السبب أخفيت عني وفاة زوجته حتى لا أشك للحظة أنك تتآمر ضد عزيز لسبب ما... طلقني توفيق.

_ ألا تريدان معرفة مكان باية ؟

_ لا حاجة لي بذلك، عزيز أدرك مكانها و هو في

طريقه إليها الآن

_ أين هي؟

_المسؤول اعلم بالسائل ، أولست من دبر أمر

اختطافها ؟ أليس صحيحا أنك تحبس تلك الطفلة البريئة

الآن في سانتا كروز ؟

_كلا، ليس صحيحا ، باية في مكان آخر الآن .

_كفاك كذبا توفيق...هذا ما تقوله احدى اللوحات

التي كنت تدسها في مرسمه بتواطئ ذلك الطبيب ، يا له

من رسام بارع حقا.

نظر توفيق مشدوها إلى مريم ، كيف استطاعت أن

تربط بين كل الأحداث خلال سويعات فقط

_لكن الخطة تغيرت .

قال تلك العبارة ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية
 بسطها بين يدي مريم ، جعلت تحقق فيها و هي لا تعي
 ما تنبئ به فنظرت إلى زوجها تريد تفسيراً للرسم .

_ لن أمد المعلومة بالبحر .

_ ما المقابل؟

_ نصف ميراثك .

_ لك ميراثي كله المهم أن تعود لأخي ابنته.

أخرج توفيق قلماً من جيبه و بصعوبة عثر على
 ورقة بيضاء وسط حطام الغرفة ثم أمر زوجته بأن تكتب
 له ما عهدته إليه ، جلست و كتبت بخط يدها أنها تمنح
 نصف ميراثها له و ناولته إياها ، طواها و دسها في جيبه .

__باية مخبأة في إحدى غرف مستشفى الأمراض

العقلية .

__أظنني ساذجة إلى هذا الحد؟ إنما تقول ذلك

لتحمل عزيز على الذهاب إلى هناك ثم حبسه بدعوى أنه

مجنون.

__بل متيقن أنك ذكية لدرجة أنك تعلمين أن لا

حاجة لي بالاستمرار في اللعبة و قد حصلت منك على

نصف ما تريين .

فكرت مريم هنيهة ثم قفزت نحو هاتفها تتصل

بعزيز، كان فرغ من تناول طعامه و بدأ يتهيأ للرحيل إلى

وهران حين أخبرته بمكان باية ، رمى الهاتف جانبا و خرج

مسرعا ، أما مريم فقد اشترطت على توفيق أن تذهب إلى

المستشفى لتأكد بنفسها عودة باية لأحضان عزيز
فوافقها .

صدفة عجيبة أن يصل الثلاثة: توفيق، مريم و عزيز
في وقت واحد إلى المستشفى ، أشار توفيق إلى عزيز يريه
الجناح الذي تقبع فيه ابنته ، فسار نحوه و خلفه توفيق و
مريم يتبعانه، وصل إلى الجناح و قد كان رواقا طويلا تتوزع
عليه الغرف يمنة و يسرة ، استدار نحو توفيق يبغى تحديد
الغرفة فأخبره أن باية في آخر غرفة إلى اليمين ، وصل إلى
تلك الغرفة و هو يذرف دموع الفرح الممزوج بالخوف من
أن يكون كل ما يحياه الآن حلقة من حلقات المؤامرة التي
نسج خيوطها توفيق منذ البداية، كان الباب موصدا
ففتحه و هو يطل في الداخل، لم يكن في الغرفة سوى
سرير يبدو أن أحدا ينام فيه متدثرا بغطاء شتوي و لم يكن

من تحته إلا دمية... أكيد إنها باية تغط في نوم عميق ،
 قفز عزيز نحوها مناديا و أشاح الغطاء فإذا بها
 وسادة.. تأكد أن توفيق كذب عليه مرة أخرى ، التفت
 خلفه فإذا بطارق يقف عند الباب و قد أخفى يده التي
 تمسك الحقنة خلف ظهره، ما إن رآه عزيز حتى تذكر
 تلك اللوحة التي كانت تمر أمام ناظره في المرسم... كان
 كلما رآها ظن أن الطبيب الذي رسم فيها هو الطبيب
 الذي كتب تقرير وفاة باية... الآن فقط أدرك كم كان
 مخطئا و أن الطبيب المعني يقف بين يديه ، أراد الخروج
 من الغرفة ففشل و قد أضناه التعب ثم زاده الخوف و هو
 يرى الدكتور طارق يتقدم و من خلفه ممرضان : جعل
 يصرخ بأعلى صوته ينادي على باية تارة و على مريم تارة
 أخرى يطلب الغوث و ما من مغيث .. أخيرا تمكن طارق
 من غرز حقنة في رقبته فخرّ صريعا ثم وضعه الممرضان

على السرير و خرج الثلاثة من الغرفة بعد إغلاقها
بإحكام .

كان توفيق يجلس في حديقة المستشفى منكوص
الرأس تنساب على وجنتيه دموع صامته اختزلت كل
معاني الحزن التي تعتريه، لم يشعر إلا و يد طارق تمتد إليه
لتربت على كتفه من جديد ، نظر إليه و إذا بابتسامة
هادئة ترسم على وجهه و هو يقول: لا تخش يا صاح...
سيصير كل شيء على ما يرام.

بعد خمسة شهور

كان الدكتور طارق جالسا في مكتبه و قد أحنى
ظهره على أوراقه يدوّن فيها كل ما يعيشه في المستشفى
تحضيرا لكتابه الجديد حين طرقت عليه مريم الباب ، أذن

لها بالدخول فدخلت ، ثم طلب منها الجلوس فجلست ،
 ثم قدم لها كوب ماء فشربت حتى ارتوت و ما إن نزع
 نظارته من على عينيه تمهيدا للحديث إليها بادرت به هي

تسأله في لهفة شديدة:

__أحان موعد الخروج ؟

__على رسلك مريم أخبريني كيف تشعرين اليوم ؟

__بخير و الحمد لله .

__حسنا ...جاهزة للرد على أسئتي الروتينية ؟

__نعم دكتور

وضع طارق نظارته من جديد و أمسك بسجله و

قلمه ثم راح يجلس قبالة مريم و انطلق يسألها :

__ما اسمك؟

—مریم

—كم تبلغين من العمر

—ثمانية و أربعون عاما

—تعملين؟

—كلا، أنا مأكثة في البيت

—متزوجة أم عزباء؟

—متزوجة .

—ما اسم زوجك؟

—توفيق

—ما عمله؟

—محاسب في بنك

__لديكما أولاد؟

__نعم... ثلاثة .. ثم سكّت و بنبرة حزن نطقت :

أقصد كانوا ثلاثة .

__كانوا ثلاثة؟ من هم؟

__تاج الدين و يحي و أيوب .

__و لما تقولين كانوا ثلاثة؟

__لأن أحدهم... مات

__من هو؟

__تاج الدين

__ماذا عن أبويك ؟

__توفيا منذ زمن بعيد

__ لديك إخوة ؟

__ كلا ، أنا وحيدة الآن... كانت لدي في الطفولة

أخت أصغر مني لكنها ماتت .

__ ما كان اسمها؟

__ باية

__ كم كان عمرها حين ماتت ؟

__ ثمانية أعوام .

أخذ طارق يفتش في ثنايا سجله و مريم تنظر إليه ثم

استخرج صورة قديمة بالأبيض و الأسود لعزيز و ناولها

مريم سائلا:

__ أتعرفين هذا الرجل؟

__ أجل، إنه أبي

__ ما كان اسمه؟

__ أحمد

__ و ما كان عمله ؟

__ كان رساما

__ لنعد إلى تاج الدين .. تذكيرين يوم وفاته؟

ما إن طرح عليها هذا السؤال خنقتها عبراتها و

صارت تجيب بصوت متحشرج حزين :

__ نعم .. أذكره كما لو أنه حدث اليوم ... كان قد

نشب نزاع حاد بين تاج الدين و بين والده بسبب

إسرافه في المال و إنفاقه على أصدقائه ..

__ و ما كان موقفك؟

_ لأول مرة في حياتي أقف في صف توفيق بعد أن أدركت كم كان محقا و هو يمنعني من تبذير دراهمه..كنت في السابق أرى أن حرص توفيق على المال هو الدافع وراء شجاره مع ابنا و بمرور الوقت اكتشف أن توفيق يسعى لتربية تاج الدين على تحمل مسؤولية نفسه .

_ثم ماذا حصل؟

_خرج تاج الدين مغضبا...في المساء رن هاتف توفيق ليتم إبلاغه أن تاج الدين مات بعد أن تعرض لحادث مرور.

انسابت العبرات على وجنتي مريم لتريحها من عناء الخلق الذي كان يلازمها كلما تذكرت حكاية تاج الدين ، فأمدتها طارق بمنديل ورقي ليمسح دموعها

_لو عاد بك الزمن مرة أخرى في أي صف كنت

ستقفين أثناء الشجار: توفيق أم تاج الدين ؟

_توفيق طبعاً...لأنه لم يظلم تاج الدين بل كان يريد

أن يصوّب له الطريق و هذا واجب كل أب حريص على
تربية أولاده .

- و ماذا عن عزيز؟

- عزيز؟ انا لا اعرف شخصاً بهذا الاسم

ارتسمت ابتسامة رضا على محيا طارق و نزع نظارته

و هو ينظر إلى مريم و بهدوء راح يقول: مبارك لك مريم

أنت في تحسن مستمر و ستخرين عن قريب.

لم تصدق مريم ما تسمعه.. أخيرا ستعود إلى بيتها و
 زوجها و أولادها بعد غياب دام كل هذه الشهور ،
 هنالك طرق توفيق الباب و دخل و هو يتفح وجه زوجته
 تارة و وجه طارق تارة أخرى ، لقد أدرك أن ثمة بشرى
 زُفّت قبل قدومه، أسرع مريم نحوه و هي تردد:
 سأخرج من هنا قريبا ، دكتور طارق أبلغني أنني بخير.

كأن توفيق تشكك في كلامها ، ألقى نظرة على
 صديقه فأوماً برأسه مصدقا على حديثها، اغرورقت عينا
 الزوج بدموع الفرح ، و حمد الله في سره و علنه ثم و بأمر
 من الطبيب أمسك بيد زوجته و خرجا من المكتب معا.

لبس طارق نظارته من جديد، و قلب القلم بين
 يديه مفكرا كيف ينهي هذه القصة التي خلّدها في كتابه
 كواحدة من عشرات القصص التي عاشها مع مرضاه،

أخيرا تراصّت الكلمات في ذهنه فألقاه على ورقته
البيضاء كالآتي: إنّ كل ما رويته لكم من قبل هو القصة
كما رأيتم مريضتي أما الآن فسأوجز لكم كل الذي
حدث في واقع الأمر: كانت مريم في العاشرة من العمر
عندما اصطحبها والدها مع شقيقتها الصغرى باية إلى
الشاطئ للاستحمام، انشغل هو برسم لوحة فنية و
أوصاها بأن تحرص أختها لكنها انهمكت باللعب و في
غفلة منها سقطت باية من أعلى الجبل و ماتت، أنكر
والدها تلك الوفاة و جعل يردد أنها اختفت و يتصور
أن الخاطف يتصل به لطلب الفدية و يذهب للقائه تارة
في قبر الرومية و تارة في سانتا كروز ، تدهورت حالته
العقلية و ثبت أنه يعاني من مرض الفصام و أدخل
المستشفى و هناك توفي، كانت تعيشين تلك اللحظات
بحزن شديد ، تستمع لكل ما تقوله عمتها التي ربّتها بعد

أن صارت بلا أم و لا أب و لا شقيقة، في قرارة نفسك
كانت تعتقد انها السبب فيما جرى لأسرتها ، كبرت و
كبر بداخلها هذا الألم المكبوت ... ألم لم يطفو على
السطح إلا بعد وفاة ابنها البكر تاج الدين، و للسبب
نفسه : شعورها بالذنب ... ظنت أنها لو وقفت بجانب
تاج الدين يومها ما كان ليخرج ، أنكرت وفاته ثم راحت
تؤلف حياة أخرى تلوذ بها من الواقع المرير : حياة
أعادت فيها ما حدث مع والدها بأدق التفاصيل غير أنها
رسمت لها بطلا جديدا اسمه عزيز منحه دور الشقيق ، ثم
هَيَّأ لها أيضا أن تاج الدين موجود عند عزيز هذا ، ثم
عاشت دور عزيز بنفس الأحداث التي عاشها والدها :
تموت ابنته، يعتقد أنها لم تمت بل اختطف، يتصل به
الخاطف ليطالب الفدية، يذهب لافتدائها فتلفت منه و
هكذا و لأن لكل قصة نصنعها لا بد لها من شرير فقد

أسندت الدور لزوجها لاعتقادها أنه كان سببا في وفاة ابنها، زوجها الذين أحسن صنعا إذ جاء بها إلي بعد أن نجح في إقناعها أنها ستعالج عزيز...تقمصها لدور عزيز و تاج الدين كان مذهلا حقا، كانت تتجول في بيتها تحسبه انه بيت عزيز ، تدخلين غرفتها فتتصور انها عزيز و قد ولج مرسمه ينظر إلى لوحاته الفنية التي كانت حسبه تنبئه بكل ما يحدث ، حتى انها وضعت لافتة كُتب عليها للبيع عند باب بيتها و هي تتوهم أن عزيز حطها عند باب بيته، ذهبت إلى قبر الرومية ظهرا و هي تظن أن الخاطف اخبر عزيز ليلا أن ابنته هناك ، تصادف وجودها مع كمين وضعته الشرطة لمروجي المهلوسات فتم القبض عليها، و حين أرت الضابط حقيبتها المليئة بالأوراق القديمة و بدأت تتحدث كما لو أنها تحمل نصف مليار سنتيم شك في سلامة عقلها و راح يقلب

هاتفها فوجد آخر اتصال بينها و بين توفيق ، استدعاه و شرح له زوجها حالتها و اصطحبها إلى البيت، و هناك أسندت مهمة الدواء لأيوب ، كان يأتيها بالعصير و فيه الدواء فتحسّيه حتى آخر رفق ، لم تشكّ للحظة أنها تتجرع الدواء ، تحسنت حالتها بمرور الوقت و اقتنعت بأن تشرب الدواء بنفسها و عادت إلى حياتها الطبيعية و بدأت تتقبل وفاة تاج الدين، أخرجت صورته من الدرج و وضعتها قبالتها بعد أن كانت لا تطيق رؤيتها ، طلبت من زوجها أن يسوقها إلى قبر ابنها ففعل ثم وقعت في الفخ الذي يقع فيه معظم المرضى : توقفت عن شرب الدواء ، فعادت التهيؤات من جديد ، و تصورت أن عزيز محبوس في بيت والدها القديم ، ذهبت إلى الغرفة المجاورة و هي تظن أنها في ذلك البيت و انها عثرت على عزيز مكبلا و انه طلب منها البحث عن تفسير لمكر

توفيق به ، كان يسمع يحي كل ما يجري و ينقله لوالده
عبر الهاتف ، عادت إلى غرفتها و فتشتها فلم تجد سوى
رسالة قديمة تعود إلى سنوات خلت يخبرها فيها احد
أقاربها أن زوجة عمها قد ماتت فاختلفت قصة أن الميتة
هي زوجة والدها و أنها تملك ميراثا ما من أبيها و أن
زوجها لم يبلغها بأمر الرسالة، و الحق أقول إن توفيق كان
ذكيّا جدا حين تمكن من استغلال هذه القصة بلعب دور
النذل الذي يساوم زوجته في ماله لكي يخبرها عن مكان
باية مستخدما رسما فنيا كنت قد منحته إياه و هكذا نجح
في إدخالها إلى المستشفى للعلاج.

وضع طارق القلم متنفسا الصعداء ثم وقع بره على
حزمة أوراق بالية على مكتبه، جعل يقلبها مبتسما، إنّ
هذه الرسوم الطفولية التي خربشتها مريم و هي صغيرة

تحكي كلما جرى لوالدها منذ موت باية إلى أن دخل
المستشفى، من يصدّق أن هذه الرسوم هي التي كانت
تراها مريم لوحات فنية عظيمة خطتها أنامل فنان ! أعاد
الرسوم إلى درج المكتب ، و وقف عند النافذة يطل على
حديقة المستشفى حيث كانت تجلس مريم برفقة زوجها
يتبادلان الحديث ، شرد فيهما و هو يردد في داخله: لو
كان كل الناس مثل توفيق لتمكنا من علاج نصف
مرضى هذا البلد .

النهاية